

س روائع حجۃ اللہ علیہ ابی حامد الغزی

کتاب التوبۃ

الْتَّوْبَةُ إِلَى اللَّهِ
حَمْدٌ

ومکرات الذنب

حجۃ الإسلام أبی حامد الغزی

رواية وتحقيق وطبع
عبداللطیف عائز

لکتب القرآن

لطبع والنشر والتوزيع

شارع القشاش بالقرشادی، بولاق أبوالاسد.

١٠٢٦٧٦٩٦٢ - ت ٧٦٨٥٩١ - فاکن ٤٨٤٩

وَكِيلَنَا الْوَحِيدُ بِالْمَلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ ،

مَكْتَبَةُ السَّاعِي

الرِّيَاضُ ت. ٤٢٥٣٧٦٨ - ٤٢٥٥٩٤٥ فَاكسُ

صَرِيبٌ ٥٦٤٩ الرِّيَاضُ ١١٥٣٣

فَسَعْ جَسَدَةٍ - تَلْيِفُونٌ ٦٥٣٩٠٨٩

جَمِيعُ الْحَقْوَنِ يَحْفَظُهُمُ اللَّهُ أَعْلَمُ



كلمة الحق

كثيراً ما أخلو — بين الحين والحين — إلى مؤلفات « حجة الإسلام أبي حامد الغزالى » فأجد فيها راحة لقلبي ، وبشكل لنفسى ، وبخاصة ما يتعلق منها بالمنجيات .

فلقد قرأت فيما قرأت عن التوبة والثائرين
« أن رجالاً سأله ابن مسعود عن ذنب ألم به .

هل لي من توبة ؟!

فأعرض عنه ابن مسعود ، ثم التفت إليه ؛ فرأى عينيه تدرسان !!

فقال له :

إن للجنة ثانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة
فإن عليه ملكاً موكلاً به لا يُغلق ؛ فاعمل ولا تيأس .

ورأيت « إمامنا الغزالى » يضع التوبة على رأس المنهج
في كتابه « إحياء علوم الدين » ، ويتأول مكررات الله
تناولاً رائداً ويفرد لهذا البحث مباباً مستقلاً نظراً لأن
تأثيره في عاجل حياتنا وأجلها .

ولست أخفي عليك — أيها القارئ العزيز — أن هذا الكتاب قد شدني ، وملك على جوانب نفسي ، حيث تصدى «أبو حامد» لشرح حقيقة التوبه ، وبيان شرطها ، وسببها ، وعلامتها وثمرتها ، والآفات المانعة منها ، والأدوية الميسرة لها مما قد لا نجده مجتمعاً في كتاب !

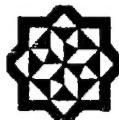
وقلت في نفسي : من هنا ليس في حاجة عاجلة إلى مراجعة نفسه ، والإقبال على ربه ؛ ليتوب إليه توبة نصوحاً؟ ولكن كيف السبيل؟! وأين الطريق إلى ذلك الباب المفتوح .. «باب التوبه» !!؟

وهنا بترت فكرة إخراج هذا الكتاب .. لماذا لا غهذه للتفكير ؟ ولهم لا نيسره للذكر ؟؛ لينير لكل مسلم طريق التوبة حتى يكون مع الذين أنعم الله عليهم ورضي عنهم ورضوا عنه .

وها هوذا بين يديك ؛ فإن وفقنا فمن الله وحسبنا الله ونعم الوكيل ،،،،

عبد اللطيف عاشور

أول شعبان ١٤٠٦
١٠ من إبريل ١٩٨٦ م



دراسة التحقيق

- هذا الكتاب !
- المؤلف .
- عصره .
- مؤلفاته .
- حجة الإسلام الغزالى مؤلفاً و مجدداً .
- منهج التحقيق .

هذا الكتاب

نوع فريد متميز بين غيره من الكتب التي تناولت موضوع التوبة والتائبين ؛ فلقد بين مؤلفه حدها ، وحقيقةها ، وسببها الذي به تجذب ، وغرتها التي منها تستفاد ، وعلامتها التي بها تُعْرَف ، وفضليتها التي لأجلها فيها يرحب ، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل .

وقد نجد من صنف في هذه المعانى كتاباً ولكن المؤلف —
وهو أعلم بما صنف — يقول :

يُمتاز هذا الكتاب عن تلك الكتب بخمسة أمور :

الأول — حل ما عقدوه ، وكشف ما أحفلوه .

الثاني : ترتيب ما بدّدوه ، ونظم ما فرقوه .

الثالث — إيجاز ما طلوه ، وضبط ما قرروه .

الرابع — حذف ما كرروه ، وإثبات ما حرروه .

الخامس — تحقيق أمور غامضة اعتمدت على الأفهام لم يُتَعَرَّض لها في الكتب أصلاً .

ومن أجل هذا كان حرصنا على حسن إعداد هذا الكتاب
للنشر وتقديمه لقرائنا وهذا هو ذا بين يديك !

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينير لنا طريق التوبة ، وأن
يهدي لنا من أمرنا رشداً .



المؤلف أبو حامد الغزالى

- ولد أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالى في قرية «غزالة» من أعمال «طوس» سنة ٤٥٠ هـ.
- تنقل في طلب العلم ما بين «طوس» إلى «جرجان» و«نيسابور» حيث لازم إمام الحرمين الجويني، وصار من أخص تلاميذه.
- لقى الوزير «نظام الملك» بعد موت إمام الحرمين فعرف له مكانته، وأنزله خير منزل، وفوض إليه التدريس بالمدرسة النظامية «بيغداد» بعد أن جرى بينه وبين العلماء مجادلات ومناظرات في عدة مجالس استوجبت إعجاب نظام الملك. وكان يحضر درسه نحو ثلاثة من كبار العلماء حيث كانت تشد إليه الرجال.
- ثم ترك الدنيا وزيتها وخرج من بغداد سائحاً متتصوفاً (عام ٤٨٨)، وببدأ بالحج ثم دخل الشام وأقام بها زاهداً، وفي عزّلته ببلاد الشام ألف «كتاب الإحياء» ثم انتقل إلى بيت المقدس، ثم قصد مصر، وأقام بالإسكندرية مدة، ويقول «ابن خلkan» إنه قصد الركوب منها في البحر إلى بلاد المغرب للجتماع بالأمير «يوسف بن تاشفين» صاحب «مراكش» فبلغه نعيه، وعندئذ صرف عزمه عن تلك الناحية، وعاد إلى بغداد ثم خراسان.
- درس بالمدرسة النظامية بنيسابور مدة أخرى، ثم رجع إلى طوس، واتخذ إلى جانب درسه مدرسة للفقهاء، وخانقاه للصوفية.
- قسم وقته بين العبادة والتدريس ومجالسة المتتصوفة إلى أن وفاه الأجل (سنة ٥٠٥) في مدينة الطايران قصبة طوس بعد أن ملأ الدنيا علماً وفضلاً وخيراً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عصر الإمام الغزالى

(١) هو عصر السلاجقة الذين قاموا بمناصرة أهل السنة على الشيعة .

(٢) وهو العصر الذي نشط فيه الباطنية .

(٣) كما ازدحم العصر بأصحاب المذاهب الفلسفية المختلفة فلم يكن عجياً ولا غريباً أن يتصدى « حجة الإسلام » الغزالى لهؤلاء وأولئك .. بالرد .. والتفنيد .. والمناهضة ويعلنها حرباً .. ويشن هجماته وغاراته على جهات مختلفة كانت وسليته فيها المناظرة والجادلة والتأليف ، والتصنيف .

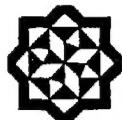
مؤلفاته :

لو تصدينا لعد مؤلفاته وحصرها لوجدنا أنها تزيد على السبعين مؤلفاً ؛ منها سارأى النور ، ومنها ما لا يزال مخطوطاً .. ومن مؤلفاته :

- ١ — تهافت الفلاسفة .
- ٢ — مقاصد الفلاسفة .
- ٣ — عقيدة أهل السنة .
- ٤ — فضائح الباطنية .
- ٥ — فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة .
- ٦ — تنزيه القرآن عن المطاعن .
- ٧ — التبر المسبوك في نصيحة الملوك .
- ٨ — مكاشفة القلوب .
- ٩ — المنقد من الضلال .

- ١٠— ميزان العمل .
- ١١— إلحاد العوام عن علم الكلام .
- ١٢— إحياء علوم الدين .
- ١٣— الوسيط « في علم الفقه » .
- ١٤— البسيط « في علم الفقه » .
- ١٥— الوجيز « في علم الفقه » .
- ١٦— الخلاصة « في علم الفقه » .

إلى غير ذلك من كتبه التي تصدت لحصرها قوائم الكتب والخطوطات .



حِجَّةُ الْإِسْلَامِ الْغَزَّالِيِّ مُؤْلِفًا وَمُحَدِّدًا

حجّة الإسلام الغزالى مؤلفاً ومحدداً

نستطيع أن نقسم عمل حجّة الإسلام وإنتاجه وتجدیده في ناحيتين :

الأولى : نقد الفلسفه و مناقشته لها ، و تجدیده لعلم الكلام الذي قد جدّته
و حياته .

الثانية : « الحِسْبَةُ » على المجتمع الإسلامي المعاصر ، والدعوة إلى الأخلاق
الإسلامية ، والروح ، والتخلّي بالحقائق .

ويتمثل الناحية الثانية كتابه العظيم « إحياء علوم الدين » وقد صنف الغزالى
هذا الكتاب ، وقد خرج من بغداد في طلب السعادة واليقين واشتغل بالعبادة
والجهاد والانقطاع عن الناس . الغزالى إذن مصلح اجتماعي يختص جزءاً من
كتابه بذم الغرور يذكر فيه أصناف المغتررين ، وفرق كل صنف ، ذكر منهم
المغتررين من أهل العلم ، وفرقهم ، والمغتررين من المتصوفة ، والمغتررين من أرباب
الأموال وفرقهم ، وقد ذكر منافذ الشيطان وداخل النفس في هذه الطبقات
وأصنافها وذكر من أفكارهم ومزاليقهم وعقدهم النفسيه ما لا يطلع عليها إلا
عالم كبير من علماء النفس^(١) .

وقد انتقد العلماء والمشتغلين بالعلم في غلوائهم في الإكثار من الجزئيات
الفقهية ، والخلافيات ، والكلام ، والجدل ، والتعقّل في العلوم الآلية : كالنحو
واللغة ، والشعر والغريب ، والانبهاك به .

(١) أبو الأعلى المودودي — حجّة الإسلام الغزالى .

نقده للصوفية :

وانتقد الصوفيه : بالاكتفاء بحفظ أقوال المشائخ وأخيارهم ولاحظ أن هذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها .

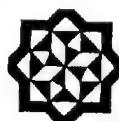
فأما علم الطب والحساب والصناعات ، وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع ، فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث إنها علوم ؛ فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع .

ولقد ذكر من التباسات الصوفية ومباغتهم شيئاً كثيراً يدل على إنصافه وتدقيقه .

وقد ذكر عن المغتررين من أرباب الأموال طرائف وحقائق تدل على النظر العميق والفهم الديني الصحيح .

ويتجلى لنا ذلك من خلال حديثه عن غرور العامة وطوابق من الأغنياء والفقراe ؛ مما يحول دون « التوبة » ويعد المسلم عن الصراط المستقيم ويُتيح للشيطان أن يستحوذ عليهم وينسيهم ذكر الله ؛ فيصبحوا من حزبه !! وهو ذا يفتح باب التوبة لكل هؤلاء وأولئك ليكونوا جميعاً على صراط مستقيم ، طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين . وإذا كان الإمام الغزالى قد حمل الغرور أنس المهلكات فقد جعل التوبة على رأس المنجيات .

ويظهر الغزالى مصوراً حاذقاً يتناول بريشه البارعة مجتمع عصره فيصور مخاليه وقسمات وجهه وجسمه وقائعه وتجاعيده ويظهر في ذلك كله ذكاؤه وسعة اطلاعه ، ودقة ملاحظته وبراعة تصويره وسلامة تفكيره .



مِنْهَجُ التَّحْقِيقِ

منهج التحقيق

- قدمت للكتاب ، وعلقت عليه بما يتبع للقارئ المسلم معرفة أنواع الذنوب ومكفراتها ويهىء له كيف يتوب منها !
- قسمت أركان الكتاب الأربعة إلى فصول ، وبذلت جهدى في اختيار العناوين الملائمة لها ليتسنى الإمام بها ، والانتفاع بكل ما جاء فيها .
- وضعت على مدخل كل ركن «مرآة» يرى فيها القارئ ما تضمنه ذلك الركن من أفكار ونقاط .
- قدمت للقارئ بياناً تفصيلياً بالذنوب التي منها توب مع أقسام الناس في الآخرة طبقاً لما تناوله الإمام الغزالى مما يساعد القارئ على الإمام بالموضوع ، ويشير فيه مزيداً من الشوق إلى استيعابه على الوجه الأكمل .
- أخرجت الكتاب في صورته الائقة وجعلته في متناول الجميع ، ليسهل تداوله ، والاستفادة مما تناوله .
- وهو هو ذا ينضم إلى «إخوة له» من روائع حجة الإسلام الغزالى أصدرتها مكتبة القرآن .
- الزواج الإسلامي السعيد .
- المقصد الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى .
- أصناف المغوروين .
- بداية المداية .
- الأذكار والدعوات .



مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب ، وبذكراه يصدر كل خطاب ، وبحمده يتنعم أهل النعم في دار الثواب ، وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخي دونهم الحجاب ، وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهرة من قبله العذاب .

وントوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب . وغزير الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب .

ونصل على نبيه محمد ﷺ ، وعلى آله وصحبه ، صلاة تقذنا من هول المطبع يوم العرض والحساب ، وتههد لنا عند الله زلفي وحسن مآب .

مبدأ طريق السالكين

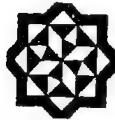
أما بعد . فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول إقدام المريدين ؛ ومفتاح استقامة الماثلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين . وما أجرد بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو أن أذنب الآدمي واجترم ^(٢) فهي شيشينة يعرفها من أخرم ^(٣) ؟ ومن أشبه أباه فما ظلم ولكن الأب إذا جبر بعدما كسر وعمر بعد

(٢) اجترم : ارتكب ذنباً وجزماً .

(٣) الشيشينة : الطبيعة والعادة . وهي بكسر الشين الأولى والثالثة . وكان أخرم عاكفاً لأبيه فمات ، فوثب أولاده على جدهم فأدموه فقال : إن تبني ضر جوني بالدم . « شيشينة أعرفها من أخرم » فأصبح الشيطان من البيت مثلاً يضرب في قرب الشبه . (تهذيب مجمع الأمثال) .

أن هدم ، فليكن النزوع إليه في كلا طرف النفي والإثبات ، والوجود والعدم رللّه قرَعَ آدُمْ سَنَ الندم ، وتنَدَمُ على ما سبق منه وتقدم . فمن اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم . بل التجرد لخض الخير دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للشر دون التلاف سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين . فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان ، والمتجرد للشر شيطان ، والمتلافق للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان فقد ازدوج في طينة الإنسان شaitan ، واصطبغ فيه سجيتان . وكل عبد مصحح نسبة إما إلى الملك ، أو إلى آدم ، أو إلى الشيطان . فالتأب قد أقام البرهان على صحة نسبة إلى آدم بملازمة حد الإنسان . والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بحسب الشيطان .

فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لخض الخير فخارج عن حيز الإمكان ، فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجناً محكماً ، لا يخلصه إلا إحدى النارين ، نار الندم أو نار جهنم . فالإحراق بالنار ضروري في تخلص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان ، وإليك الآن اختيار أهون النارين ، والهادرة إلى أخف الشررين ، قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويُساق إلى دار الاضطرار ، إما إلى الجنة وإما إلى النار !!



تَهْيِدٌ

تَهْيِدٌ

إذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموضع ، وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها ، وشروطها ، وسببها ، وعلامتها ، وثمرتها ؛ والآفات المانعة منها ، والأدوية الميسرة لها . ويتبين ذلك بذكر أربعة أركان :

الركن الأول : في نفس التوبة ، وبيان حدها ، وحقيقةها ، وأنها واجبة على الفور ، وعلى جميع الأشخاص ، وفي جميع الأحوال ، وأنها إذا صحت كانت مقبولة .

الركن الثاني : فيما عنه التوبة ، وهو الذنوب ، وبيان انقسامها إلى صغائر وكبائر ، وما يتعلق بالعباد ، وما يتعلق بحق الله تعالى ، وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات^(٤) والسيئات ، وبيان الأسباب التي بها تعظم الصغار .

الركن الثالث : في بيان شروط التوبة ودوامها ، وكيفية تدارك ما مضى من المظالم ، وكيفية تكفير الذنوب ، وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة .

الركن الرابع : في السبب الباعث على التوبة ، وكيفية العلاج في جل عقدة الإصرار من المذنبين ويتم المقصود بهذه الأركان الأربع إن شاء الله عزوجل .

(٤) لأهل الجنة درجات على الحسنات . كما أن لأهل النار دركات على السيئات وقد جاء القرآن بهذا في قوله تعالى ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي الدُّرُكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ . ﴿وَلِكُلِّ دَرْجَاتٍ مَا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٩] .

الرَّكْنُ الْأُولُ

فِي نَفْسِ التَّوْبَةِ

- بيان حقيقة التّوبة وحَدِّها .
- بيان وُجُوبِ التّوبة وفضلها .
- بيان أن التّوبة واجبة على الفور .
- بيان أن التّوبة واجبة على جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال
- بيان أن التّوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة !!



الفصل الأول

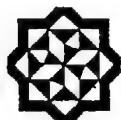
بيان حقيقة التوبة وحدتها

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى يتنظم ويتشتم من ثلاثة أمور مرتبة: علم . وحال . وفعل . فالعلم الأول ، والحال الثاني ، والفعل الثالث . والأول موجب للثاني ، والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضاه اطراد سنة الله في الملك والملوك .

أما العلم : فهو معرفة عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محظوظ فإذا عرف ذلك معرفة محققة ، ييقن غالب على قلبه ، ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب . فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم . فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت ، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً . فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى ، انبعث بالحال ، وبالماضي ، وبالاستقبال . أما تعلقه بالحال ، فالترك للذنب الذي كان ملابساً وأما بالاستقبال ، فالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر . وأما بالماضي ، فبتلافي ما فات بالخير والقضاء إن كان قابلاً للخير فالعلم هو الأول . وهو مطلع هذه الخيرات . وأعني بهذا العلم الإيمان واليقين . فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سبب مهلكة ، واليقين عبارة عن تأكيد هذا التصديق ، وانتفاء الشك عنه ، واستيلاؤه على القلب ، فيشمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم . فيتألم بها القلب حيث يصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوباً عن محبوبه ، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة ، فيسقطر النور عليه بانقسام سحاب ، أو انحسار حجاب ، فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك ، فتشتعل نيران الحب في قلبه ، وتتبعت تلك النيران بإرادته للانهاض للتدارك .

فالعلم والندم ، والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال . والتلافي للماضي ، ثلاثة معانٍ مرتبة في الحصول ، فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى للندم وحده ، ويجعل العلم كالسابق والمقدمة ، والترك كالثمرة والتابع المتأخر . وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام ^(٥) « التَّدْمُ تُوْبَةٌ » إذ لا يخلو الندم عن علم أو جبه وأثره ، وعن عزم يتبعه ويتلوه . فيكون الندم محفوفاً بطرفيه ، أعني ثمرته ومثمره . وبهذا الاعتبار قيل في حد ^(٦) التوبة أنه « ذُوبَانَ الْحَشَا لِمَا سَبَقَ مِنَ الْخَطَا » . فإن هذا يعرض مجرد الألم . ولذلك قيل هو نار في القلب تلتهب ، وصدع في الكبد لا ينتفع ^(٧) . وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء . وقال سهل بن عبد الله التستري : التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة . ولا يتم ذلك إلا بالخلوة ، والصمت ، وأكل اللحال . وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة .

والأقوال في حدود التوبة لا تتحصر . وإذا فهمت هذه المعانى الثلاثة ، وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانٍها . وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة .



(٥) حديث الندم توبة : ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح استناده من حديث ابن مسعود ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيفيين .
 (٦) تعرّيفها . (٧) الصدع الشق ، والانشعاب : الاشتام .



الفصل الثاني

بيان وجوب التوبة وفضلها

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار^(٨) والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند من افتحت بصيرته ، وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقدر على أن يسمى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل ، مستغنياً عن قائد يقوده في كل خطوة . فالسالك إما أعمى لا يستغني عن القائد في خطوه ، وإما بصير يهدى إلى أول الطريق ثم يهتدى بنفسه . وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام . فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوة ، يفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصاً من كتاب الله أو سنة رسوله ، وربما يعوزه ذلك فيتحير . فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده مختصر ، وخطاه قاصرة . ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام ، فهو على نور من ربه ، فيتباهي بأدنه إشارة لسلوك طريق موعضة ، وقطع عقبات متيبة . ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان . وهو لشدة نور باطنه يجزيء بأدنى بيان ، فكأنه يكاد زيه يضيء ولو لم تمسسه نار . فإذا مسته نار فهو نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة .

(٨) حديث الأخبار الدالة على وجوب التوبة : مسلم من حديث الأغر المزى يا أيها الناس توبوا إلى الله الحديث : ولابن ماجه من حديث جابر يا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتو — الحديث : وسنده ضعيف .

ماذا يفعل من أراد أن يعرف وجوب التوبة ؟

فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة ، فينظر أولاً بنور البصيرة إلى التوبة ما هي ، ثم إلى الوجوب ما معناه ، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة ، فلا يشك في ثبوته لها وذلك بأن يعلم معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد ، والنجاة من هلاك الأبد ، فإنه لو لا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه ؛ لم يكن لوصفه بكونه واجباً معنى . وقول القائل صار واجباً بالإيجاب حديث مغض . فإن ما لا غرض لنا آجلاً وعاجلاً في فعله وتركه ، فلا معنى لاشتغالنا به أو وجهه علينا غيرنا أو لم يوجهه . فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد ، وعلم أن لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى ، وأن كل محجوب عنه يشقى لا محالة ، محول بينه وبين ما يشهي ، محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات ، والأنس بهذا العام الفاني ، والإكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعاً ، وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم ، والإقبال بالكلية على الله طلياً للأنس به بدوام ذكره ، وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته .

لزوم التوبة للعبد

وعلم أن الذنوب التي هي إعراض عن الله ، واتباع مخاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته ، سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله تعالى . فلا يشك في أن الانصراف عن طريق بعد واجب للوصول إلى القرب . وإنما يتم الانصراف بالعلم ، والندم ، والعزم فإنه مالم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن

المحبوب لم يندم ، ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق العبد . وما لم يتوجع فلا يرجع . ومعنى الرجوع الترک والعزم فلا يشك في أن المعانى الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب . وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح مثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق ، ففي التقليد والاتباع له مجال رحب ، يتوصل به إلى النجاة من الملاك ، فليلاحظ فيه قول الله ، وقول رسوله ، وقول السلف الصالحين . فقد قال الله تعالى ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٩) وهذا أمر على العموم . وقال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾^(١٠) الآية ، ومعنى النصوح الحالص لله تعالى خالياً عن الشوائب مأخوذه من النصح . ويدل على فضل التوبة قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَابِينَ وَيُبْغِضُ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(١١) . وقال عليه السلام^(١٢) «التائب حبيب الله والتائب من الذئب كمن لا ذئب له» .

فرح الله بتوبة العبد

وقال رسول الله ﷺ^(١٣) : «الله أفرج بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دويبة مهلكة^(١٤) معه راحلته عاليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام

(٩) التور : ٣١

(١٠) التبرير : ٤٢٢ (١١) البقرة :

(١٢) حديث التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له : ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشطر الثاني دون الأول وأما الشطر الأول فروى ابن أبي الدنيا في التوبة وأبو الشيخ في كتاب الغواب من حديث أنس بسنده ضعيف «إن الله يحب الشاب التائب» ولعبد الله بن أحمد في زوائد المستند وأبو بعل بسنده ضعيف من حديث على «إن الله يحب العبد المؤمن المفتتن التواب» .

(١٣) حديث الله أفرج بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض فللة دويبة مهلكة — الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس زاد مسلم في حديث أنس ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح ورواه مسلم بدون هذه الزيادة من حديث التعمان بن بشير ومن حديث أبي هريرة مختصرأ .

(١٤) التوبية : المفارزة ، والفلاة : الواسعة .

لَهُوَمَةٌ فَاسْتِيقَظْ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتِهَا حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطْشُ
أُوْ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَّمَ حَتَّى أَمْوَاتَ قَوْضَعَ
رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتْ فَاسْتِيقَظْ فَإِذَا رَاحِلَتِهِ عِنْدَهُ عَلَيْهَا زَادَهُ وَشَرَابُهُ فَاللَّهُ
عَالَى أَشَدَّ قَرَحًا بِتَوْيَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ» وَفِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ قَالَ
مِنْ شَدَّةِ فَرْحَةٍ ، إِذْ أَرَادَ شَكْرَ اللَّهِ ، أَنَا رَبُّكَ وَأَنْتَ عَبْدِي .

وَيَرُوِيُّ عَنِ الْحَسْنِ قَالَ : لَمَّا تَابَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : هَنَّا هُوَ
الْمَلَائِكَةُ ، وَهَبَطَ عَلَيْهِ جَبَرِيلُ وَمِيكَائِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ . فَقَالَا يَا آدَمَ قَرْتَ عَيْنَكَ بِتَوْبَةِ
اللَّهِ عَلَيْكَ . فَقَالَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا جَبَرِيلُ ، فَإِنَّ كَانَ بَعْدَ هَذِهِ التَّوْبَةِ سُؤَالٌ
فَأَيْنَ مَقَامِي؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ يَا آدَمَ ، وَرَثَتْ ذُرِّيَّتِكَ التَّعْبُ وَالنَّصْبُ ، وَوَرَثَتِهِمُ
التَّوْبَةُ . فَمَنْ دَعَنِي مِنْهُمْ لَيْتَهُ كَمَا لَيْتَكَ ، وَمَنْ سَأَلَنِي الْمَغْفِرَةَ لَمْ أَبْخَلْ عَلَيْهِ ، لَأَنِّي
قَرِيبٌ بِحِبِّ يَا آدَمَ ، وَأَحْسَنُ التَّائِبِينَ مِنَ الْقُبُورِ مُسْتَبْشِرِينَ ضَاحِكِينَ ،
وَدُعَاؤُهُمْ مُسْتَجَابٌ . وَالْأَخْبَارُ وَالآثَارُ فِي ذَلِكَ لَا تَحْصِي ، وَالْإِجْمَاعُ مُنْعَدِدٌ مِنْ
الْأُمَّةِ عَلَى وَجْهِهَا ، إِذْ مَعَنَاهُ الْعِلْمُ بِأَنَّ الذَّنْبَ وَالْمَعْاصِي مَهْلِكَاتٍ وَمَعْدَاتٍ مِنْ
اللَّهِ تَعَالَى وَهَذَا دَخْلٌ فِي وَجْبِ الإِيمَانِ ، وَلَكِنْ قَدْ تَدَهَّشَ الْغَفَلَةُ عَنْهُ فَمَعْنَى
هَذَا الْعِلْمِ إِزَالَةُ هَذِهِ الْغَفَلَةِ ، وَلَا خَلَافٌ فِي وَجْهِهَا .

وَمِنْ مَعَانِيَهَا تَرْكُ الْمَعْاصِي فِي الْحَالِ ، وَالْتَّزَمُ عَلَى تَرْكِهَا فِي الْاسْتِقبَالِ ،
وَتَدَارِكُ مَا سَبِقَ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي سَابِقِ الْأَحْوَالِ ، وَذَلِكَ لَا يُشَكُ فِي وَجْهِهِ وَأَمَّا
الْتَّنَدِمُ عَلَى مَا سَبِقَ ، وَالْتَّحْزُنُ عَلَيْهِ ، فَوَاجِبٌ . وَهُوَ رُوحُ التَّوْبَةِ ، وَبِهِ تَمَّ
الْتَّلَافُ . فَكِيفَ لَا يَكُونُ وَاجِبًا؟! بَلْ هُوَ نَوْعٌ لِلْمُحْصَلِ لَا مَحَالَةٌ ، عَقِيبَ حَقِيقَةِ
الْمَعْرِفَةِ بِمَا فَاتَ مِنَ الْعُمَرِ وَضَاعَ فِي سُخْطِ اللَّهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : تَأْلُمُ الْقَلْبُ أَمْ ضَرُورَى لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْاِخْتِيَارِ ، فَكِيفَ
يُوصَفُ بِالْوَجْبِ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ سَبَبَهُ تَحْقِيقُ الْعِلْمِ بِفَوْاتِ الْمَحْبُوبِ . وَلَهُ سَبِيلٌ إِلَى تَحْصِيلِ سَبَبِهِ .
وَهُمْثُلُ هَذَا الْمَعْنَى دَخْلُ الْعِلْمِ تَحْتَ الْوَجْبِ ، لَا تَعْنِي أَنَّ الْعِلْمَ يَخْلُقُهُ الْعَبْدُ

ويحدثه في نفسه ، فإن ذلك محال . بل العلم ، والندم ، والفعل ، والإرادة ، والقدرة ، والقادر ، الكل من خلق الله و فعله **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ** وَمَا تَعْمَلُونَ^(١٢) هذا هو الحق عد ذوى الصائر . وما سوى هذا ضلال .

بحث في أفعال العبد وهل له اختيار

فإن قلت . أليس للعبد اختيار في الفعل والترك ؟ قلنا نعم : وذلك لا ينافي قولنا إن الكل من خلق الله تعالى . بل الاختيار أيضاً من خلق الله . والعبد مضطرب في الاختيار الذي له فإن الله إذا حلق اليد الصحيحة ، وخلق الطعام المذيد ، وخلق الشهوة للطعام في المعدة ، وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة ، وخلق الخواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضره مع أنه يسكن الشهوة ، وهل دون تناوله مانع يتغدر معه تناوله أم لا ، ثم خلق العلم بأنه لا مانع ، ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجز الإرادة الباعثة على التناول . فانجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة ، وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختياراً ، ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه . فإذا حصل انجزام الإرادة يخلق الله تعالى إياها ، تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة . إذ بعد تمام الإرادة والقدرة ، يكون حصول الفعل ضرورياً فتحصل الحركة ، فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة ، وهو أيضاً من خلق الله . وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة ، والعلم بعد المانع ، وهو أيضاً من خلق الله تعالى . ولكن بعض هذه الخلوقات يتربت على البعض ترتيباً جرت به سنة الله تعالى في خلقه . ولن تجد لسنة الله تبديلاً . فلا يخلق الله حركة اليد بكتابه منظومة ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة ، وما لم يخلق فيها حياة ، وما لم يخلق إرادة مجزومة . ولا يخلق الإرادة انجزومه ما لم يخلق شهوة

. ٩٦) الصافات : ١٥١

وميلاً في النفس ولا ينبعث هذا الميل انبعاثاً تماماً مالم يخلق علمًا بأنه موافق للنفس ، إما في الحال أو في المال . ولا يخلق العلم أيضاً إلا بأسباب أخرى ترجع إلى حركة وإرادة وعلم . فالعلم والميل الطبيعي أبداً يستتبع الإرادة الجازمة ، والقدرة والإرادة أبداً تستردف الحركة ، وهكذا الترتيب في كل فعل . والكل من اختراع الله تعالى . ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض . فلذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض ، كما لا يخلق الإرادة إلا بعد العلم ، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ، ولا يخلق الحياة إلا بعد الجسم . فيكون خلق الجسم شرط لحدوث الحياة ، لأن الحياة تتولد من الجسم . ويكون خلق الحياة شرطاً لخلق العلم ، لأن العلم يتولد من الحياة . ولكن لا يستعد الخل لقبول العلم إلا إذا كان حياً ، ويكون خلق العلم شرطاً لجذب الإرادة ، لأن العلم يولد الإرادة . ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم . ولا يدخل في الوجود إلا ممكناً ، وللإمكان ترتيب لا يقبل التغيير ، لأن تغييره مملاً . فمهما وجد شرط الوصف استند الخل به لقبول الوصف ، فحصل ذلك بوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد . ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب ، كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب . والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة : وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كلمع البصر ترتيباً كلياً لا يتغير . وظهورها بالتفصيل مقدر يقدر لا يتعداها . وعنده العبارة بقوله تعالى ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدْرٍ﴾^(١٦) وعن القضاة الكل الأزلي العبارة بقوله تعالى ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْبُحٌ بِالْبَصَرِ﴾^(١٧) وأما العباد فإنهم مسخرون تحت مجاري القضاء والقدر . ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب ، بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوى جازم في نفسه يسمىقصد ، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة .

فِإِذَا صَنَعْتُ مِنْ بَاطِنِ الْمُكَوَّتِ هَذِهِ الْأَمْرُوا أَرْبِيعَةٌ عَلَى جَسْمِ عَبْدِ مُحَمَّدٍ
تَحْتَ التَّقْدِيرِ ، سَبِقَ أَهْلَ عَامِ الْمُكَوَّتِ وَالشَّهَادَةِ اخْجُوبَيْنَ عَنْ عَامِ الْغَيْبِ
وَالْمُكَوَّتِ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا النَّارُ حَلْ ، قَدْ تَحَرَّكْتَ ، وَرَمِيتَ ، وَكَتَتَ . وَنَوْدَى مِنْ
وَرَاءِ حَحَبِ الْعَبَّ وَسِرْدَقَاتِ الْمُكَوَّتِ ﴿٢٠﴾ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ
رَمَيَ ﴿٢١﴾ وَمَا قَتَلتَ إِذْ قَتَلتَ ، وَلَكِنَّ ﴿٢٢﴾ قَاتَلُوكُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴿٢٣﴾
وَعَدَ هَذَا سَحِيرُ عَقُولِ الْقَاعِدِينَ فِي بَحْبُوحَةِ عَامِ الشَّهَادَةِ ، فَمَنْ قَاتَلَ إِنَّهُ جَيْرٌ
مَحْصُ ، وَمَنْ قَاتَلَ إِنَّهُ اخْتَرَاعٌ صَرْفٌ ، وَمَنْ مُتَوَسِّطٌ مَثَلًا إِنَّهُ كَسْبٌ . وَلَوْ
فَعَ خَمْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ فَنَظَرُوا إِلَى عَامِ الْغَيْبِ وَالْمُكَوَّتِ ، لَضَاهَرَ فِيهِمْ أَنَّ كُلَّ
وَاحِدٍ صَادِقٍ مِنْ وَجْهِهِ ، وَأَنَّ الْقَصُورَ شَامِلٌ لِجَمِيعِهِمْ ، فَلَمْ يَدْرِكْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ
كَمْ هَذَا الْأَمْرُ ، وَلَمْ يَنْهَطْ عِلْمَهُ بِجُوانِهِ . وَتَقَامَ عِلْمُهُ بِيَنَالٍ بِإِشْرَاقِ النُّورِ مِنْ كُوْكَةٍ
نَافِدَةٍ إِلَى عَامِ الْغَيْبِ وَأَنَّهُ تَعَالَى عَامِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ لَا يَضْهَرُ عَلَى غَيْرِهِ أَحَدًا ،
إِلَّا مِنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ . وَقَدْ يَضْلِعُ عَلَى الشَّهَادَةِ مِنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي حِيزِ
الْأَرْتِضَاءِ .

سِرِّ الْقَدْر

ومن حرك سلسلة الأسباب والنسبيات وعلم كيفية تسلسلها ، ووجه ارتباط مناط سلسلتها بحسب الأسباب ، انكشف له سر القدر وعلم علماً يقيناً أن لا خالق إلا الله ، ولا مبدع سواه .

فإن قلت: قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر، والانحراف، والكسب، أنه صادق من وجهه، وهو مع صدقه قاصر، وهذا تناقض، فكيف يمكن فهم ذلك؟ وهل يمكن إ يصل ذلك إلى الأفهام بمثال؟ .

فأعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل، وما كانوا قط شاهدوا صورته، ولا سمعوا اسمه. فقالوا لا بد لـ

卷之二 (19)

١٧ (١٨) الأئمّة:

من مساهدته ومعرفه باللمس الذى تقدر عليه ، فقصبوه ، فنسوا وجلوا إليه لمسوه . فوقع يد بعض العميان على رجليه ووقع يد بعضهم على نابه ، ورفع يد بعضهم على أذنه . فقالوا قد عرفناه . فلما انتصروا سأتم بقية العميان ، فاختلاف أجوبتهم . فقال الذى لمس الرجل : إن قبل ما هو إلا مثل اسطوانة حشنة الظاهر ، إلا أنه ألين منها . وقال الذى لمس الناب : ليس كما يقول ، بل هو صلب لا يلين فيه ، وأملس لا يخشونة فيه ، وليس في غلظ اسطوانة أصلاً ، بل هو مثل عمود : وقال الذى لمس الأذن : اعمرى هو لين وفيه خشونة . فصدق أحدهما فيه . ولكن قال . ما هو مثل عمود ، ولا هو مثل اسطوانة ، وإنما هو مثل جلد عريض غليظ . فكأن واحد من هؤلاء صدق من وجه ، إذ أخبر كل واحد بما أصابه من معرفة الفيل ، ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل . ولكنهم بخيتهم قصرروا عن الإحاطة بكلمة صورة الفيل اختصر بهذا المثال واعتبر به ، فإنه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه . وإن كان هذا كلاماً ينطاطح علوم المكافحة وينحرك أمواجها ، وليس ذلك من غرضنا .

وجوب التوبة بجميع أجزائها

فلنرجع إلى ما كنا بصدده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة . العلم ، والندم ، والترك ، وأن الندم داخل في الوجوب ، لكونه واقعاً في جملة أفعال الله المخصوصة بين علم العبد ، وزادته ، وقدرته المتخللة بينها ، وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله .





الفصل الثالث

بيان أن وجوب التوبة على الفور

أما وجوهها على الفور فلا يستراب فيه . إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان ، وهو واجب على الفور . والمتقصى عن وجوهه هو الذي عرفه زجره ذلك عن الفعل المكروه . فإن هذه المعرفة ليست من علوم المكافئات التي لا تتعلق بعمل ، بل هي من علوم المعاملة . وكل علم يراد ليكون باعثاً على عمل فلا يقع التقصي عن عهده ما لم يصر باعثاً عليه . فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان . وهو المراد بقوله عليه السلام^(٢٠) « لَا يَزِّنِي الزَّانِي حِينَ يَزِّنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » وما أراد به نفي الإيمان الذي يرجع إلى علوم المكافئة ، كالعلم بالله ، ووحدانيته ، بصفاته ، وكتبه ؛ ورسله ، فإن ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي . وإنما أراد به نفي الإيمان لكون الزنا مبعداً عن الله تعالى . موجباً لل孽 . كما إذا قال الطبيب : هذا سم فلا تتناوله فإذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن ، لا يعني أنه غير مؤمن بوجود الطبيب ، وكونه طبيباً وغير مصدق به . بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك . فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلاً . فالعصى بالضرورة ناقص الإيمان . وليس الإيمان بباباً واحداً ، بل هو نيف وسبعون باباً ، أعلىها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدنها إماتة الأذى عن الطريق . ومثاله قول القائل . ليس الإنسان موجوداً واحداً ، بل هو نيف وسبعون موجوداً ، أعلىها القلب والروح وأدنها إماتة الأذى عن البشرة ، بأن يكون مقصوص الشارب ، مقلوم الأظفار ، نقى البشرة من الخبرث ، حتى

(٢٠) حديث لا يزن الرازي حين يزن وهو مؤمن متفق عليه من حديث أبي هريرة .

يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها، المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها.

وهذا مثال مطابق: فالإيمان كإنسان، وقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقد الروح، والذى ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقود العينين، فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة، لا أصل الروح. وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت، فتزايده الروح الضعيفة، المفردة، التي تختلف عنها الأعضاء التي تمدها وتقويها، فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان، وهو مقصر في الأعمال، قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة، المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله، ولم تنتشر في الأعمال فروعه، لم يثبت على عواصف الأحوال عند ظهور ناصية ملك الموت، وخيف عليه سوء الخاتمة، لا مايسقى بالطاعات على توالي الأيام والساعات، حتى رسخ وثبت. وقول العاصي للمطيع: إنّ مؤمن كأنك مؤمن، كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر أنا شجرة وأنت شجرة. وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت: سترفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف، فعند ذلك تنقطع أصولك، وتتناثر أوراقك، وينكشف غوروك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار.

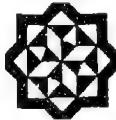
وسوف ترى إذا انجل الغبار أفرسٌ تحتك أم حمار

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة. وإنما انقطع نياط العارفين خوفاً من دواعي الموت ومقدماته الهائلة، التي لا يثبت عليها إلا الأقلون. فال العاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته، كالصحيح المنهمك في الشهارات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته. وإن الموت غالباً لا يقع فجأة، فيقال له: الصحيح يخاف المرض، ثم إذا مرض خاف الموت وكذلك العاصي يخاف سوء

الخاتمة ، ثم إذا حتم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود في النار فالمعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان ، فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها ، إلى أن يفسد المزاج ، فيمرض دفعه ، ثم يموت دفعه . فكذلك المعاصي . فإذا كان الخائف من اهلاك في هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك المسموم ، وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور ، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه . وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيا ، ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة ، على سبيل الفور والمبادرة ، تلافيًا لبدنه المشرف على هلاكه لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية ، فمتناول سوم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدراك الممكن ، ما دام يبقى للتدراك مهلة وهو العمر ، فإن المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية ، التي فيها النعم المقيم ، والملك العظيم ، وفي فواتها نار الجحيم ، والعذاب المقيم الذي تتصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدته ، إذا ليس مدته آخر أبنته . فالبدار البدار إلى التوبة ، قبل أن تعمل سوم الذنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمر فيه الأطباء و اختيارهم ، ولا ينفع بعده الاحتفاء ، فلا ينفع بعد ذلك نصح الناصحين ، ووعظ الوعاظين ، وتحق الكلمة عليه بأنه من الحالين ، ويدخل تحت عموم قوله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَغْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهُمْ مُقْمَدُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُصْرُونَ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ الْأَذْرَارُ هُمْ أُمُّ لَمْ تَنْذِرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢١) . ولا يغرنك لفظ الإيمان فتقول : المراد بالأية الكافر ، إذ بين لك أن الإيمان بعض وسيعون باباً ، وأن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن . فالمحجوب عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل . كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي حروف وفروع ، سيُساق إلى الموت المعد للروح التي هي أصل ، فلا بقاء للأصل دون الفرع ، ولا وجود للفرع دون

^(٢١) بس : ٨ ، ٩ ، ١٠ .

الأصل ، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد ، وهو أن وجود الفرع وبقاءه جمياً يستدعي وجود الأصل ، وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع ببقاء الأصل بالفرع ، ووجود الفرع بالأصل ، فعلوم المكافحة وعلوم المعاملة متلازمه كتلازم الفرع والأصل ، فلا يستغني أحدهما عن الآخر . وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة التابع . وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها فإن هى لم تعمل عملها الذى تراد له . قامت مؤيدة للحججة على صاحبها . ولذلك يزداد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر . كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الرابع

بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد أبناء

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا ، إذ قال تعالى ﴿وَتُوَبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢١) فعم الخطاب . ونور البصيرة أيضاً يرشد إليه ، معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله ، المقرب إلى الشيطان .

ولا يتصور ذلك إلا من عاقل ، ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة ، والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان ، إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنته الأربعين . وأصله إنما يتم عند مرحلة البلوغ ، وبماديه تظهر بعد سبع سنين ، والشهوات جنود الشيطان ، والعقول جنود الملائكة ، فإذا اجتمعوا قام القتال بينهما بالضرورة ، إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان ، فالقتار بينهما كالقتار بين الليل والنهر ، والنور والظلمة . ومهما علب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة . وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل ، فقد سبق جنده الشيطان ، واستولى على المكان ، ووقع للقلب به أنس ، وألف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة . وغلب ذلك عليه ، ويعسر عليه التزوع عنه . ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنته ، ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئاً فشيئاً على التدرج ، فإن لم يقو ولم يكمل ، سلمت مملكة القلب للشيطان ،

^(٢٢) التور : ٣١

وأنجز اللعين موعده حيث قال ﴿لَا خِسْكَنْ ذُرِّيَّةٌ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢٣) وإن كمل العقل وقوى ، كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ، ومفارقة العادات ، ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات . ولا معنى للتوبة إلا هذا ، وهو الرجوع عن طريق ، دليله الشهوة ، وخفيره الشيطان ، إلى طريق الله تعالى . وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله ، وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة ، فكان الرجوع عمما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضروريًا في حق كل إنسان ، نبياً كان أو غبياً ، فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بأدم عليه السلام . وقد قيل .

فلا تحسين هنداً لها الغدر وحدها سجية نفس كل غانية هند

بل هو حكم أزل مكتوب على جنس الإنس ، لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدل السنة الإلهية التي لا مطعم في تبديلها . فإذا كل من بلغ كافراً جاهلاً فعليه التوبة من جهله وكفره . فإذا بلغ مسلماً تبعاً لأبويه ، غافلاً عن حقيقة إسلامه ، فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام ، فإنه لا يعني عنه إسلام أبويه شيئاً ما لم يسلم بنفسه ، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف ، بالرجوع إلى قابل حدود الله في المنع والإطلاق ، والانفكاك ، والاسترسال ، وهو من أشق أبواب التوبة ، وفيه هلك الأكثرون ، إذ عجزوا عنه . وكل هذا رجوع وتوبة .

فدل أن التوبة فرض عين في حق كل شخص ، لا يتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر ، كما لم يستغن آدم . فخلقة الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلقة الوالد أصلًا .

وأما بيان وجوبها على الدوام ، وفي كل حال ، فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجواره . إذ لم يخل عنـه الأنبياء ، كما ورد في القرآن والأخبار من

خطايا الأنبياء ، ونوبتهم ، وبكائهم على خطاياهم . فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب فإن خلا في بعض الأحوال عن الهم ، فلا يخلو عن وسوس الشيطان بإيراد الخواطر المترفة المذهبة عن ذكر الله . فإن خلا عنه ، فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله ، وصفاته ، وأفعاله . وكل ذلك نقص ، ولوه أسباب ، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده ، والمراد بالتوبة الرجوع . ولا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص ، وإنما يتفاوتون في المقادير . فاما الأصل فلا بد منه . ولهذا قال عليه السلام ^(٢٤) «إِنَّهُ لَيَغْانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً» الحديث ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال ^(٢٥) «لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقْدَمَ مِنْ ذَلِكَ وَمَا تَأْخُرَ هُوَ» وإذا كان هذا حاله ، فكيف حال غيره ؟

فإن قلت : لا يخفى أن ما يطراً على القلب من المهموم والخواطر نقص ، وأن الكمال في الخلو عنه ، وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص ، وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال ، وأن الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع ، والرجوع توبة ، ولكن هذه فضائل لا فرائض ، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال ، والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة ، إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع . فما المراد بقولك التوبة واجبة في كل حال ؟ .

فاعلم أنه قد سبق أن الإنسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلًا . وليس معنى التوبة تركها فقط ، بل تمام التوبة بتدارك ما مضى . وكل شهوة اتبها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه ، كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرأة الصقيلة . فإن تراكمت ظلمة الشهوات صار رينا ، كما

(٢٤) حديث إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة : مسلم من حديث الأغر المزني إلا أنه قال في اليوم مائة مرة وكذا عند أبي دواد وللبحارى من حديث أبي هريرة إن لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة وفي رواية البهقى في الشعب سبعين لم يقل أكثر وتقديم في الأذكار والدعوات .

(٢٥) الفتح

عمر، بخار النفس في وجه المرأة عند تراكمه شيئاً، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَأَنَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(٢٦) فإذا تراكم الرین نصار طبعاً^(٢٧)، فيطبع على قلبه ، كالجثث على وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه ، غاص في جرم الحديد وأفسده ، وصار لا يقبل الصقل بعده ، وصار كالمطبوخ من الجثث . ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل ، بل لا بد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب . كما لا يكفي في ظهور الصور في المرأة قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل ، ما لم يستغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان . وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات ، فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتتحمى ظلمة المعصية بنور الطاعة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام^(٢٨) « أَتَبِعِ السَّيِّدَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا » .

إذا لا يستغنى العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه ، ب المباشرة حسنات تضاد آثارها آثار السيئات هذا في قلب حصل أولاً صفاوه وجلاوه ، ثم أظلم بأسباب عارضة .

فاما التصقيل الأول ففيه يطول الصقل ، إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصدأ عن المرأة كشغله في عمل أصل المرأة . فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلاً . وكل ذلك يرجع إلى التوبة .

فاما قولك : إن هذا لا يسمى واجباً ، بل هو فضل وطلب كمال ، فاعلم أن الواجب له معنيان أحدهما : ما يدخل في فتوى الشرع ، ويشارك فيه كافة الخلق ، وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم ، فلو كلف الناس كلهم أن يتقووا الله حق تقateه لتركتوا المعاش . وراغبوا الدنيا بالكلية . ثم يؤدى ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية ، فإنه مهما فسدت المعاش لم يتفرغ

(٢٦) المطففين : ١٤

(٢٧) الطبع : الحتم ، والرين الجثث الوسيخ .

(٢٨) حديث أتبع السيدة الحسنة تمحها : الترمذى من حديث أبي ذر بزيادة في أوله وآخره وقال حسن صحيح وقد تقدم في رياضة النفس .

أحد للتقوى بل شغل الحياكة ، والحراثة ، والخنزير ، يستغرق جميع العمر . من كل واحد فيما يحتاج إليه ، فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار .

والواجب الثاني : هو الذي لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين ، والمقام محمود بين الصديقين . والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه . كما يقال الطهارة واجبة في صلاة التطوع ، أى لمن يريد لها ، فإنه لا يتوصل إليها إلا بها . فأما من رضى بالنقسان والحرمان عن فضل صلاة التطوع ، فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها . كما يقال العين ، والأذن ، واليد ، والرجل ، شرط في وجود الإنسان . يعني أنه شرط لمن يريد أن يكون إنساناً كاملاً يتفعّل ب الإنسانية ، ويتوصل بها إلى درجات العلا في الدنيا . فأما من قنع بأصل الحياة ، ورضي أن يكون كل حم على وضم^(٢٩) ، وكخرقة مطروحة ، فليس يشترط مثل هذه الحياة عين ، ويد ، ورجل . فأصل الواجبات الداخلية في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة . وأصل النجاة كأصل الحياة ، وما وراء أصل النجاة من السعادات التي بها تنتهي الحياة ، يجري بجرى الأعضاء والآلات التي بها تنتهي الحياة ، وفيه سعي الأنبياء ، والأولياء والعلماء والأمثل

فالأمثل ، وعليه كان حرصهم ، وحواليه كان ظواهفهم ، ولأجله كان رفضهم ملاد الدنيا بالكلية ، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجرًا في منامه ، فجاء إليه الشيطان وقال : أما كنت تركت الدنيا للآخرة ؟ فقال نعم وما الذي حدث ؟ فقال توسدك لهذا الحجر تنعم في الدنيا ، فلم لا تضع رأسك على الأرض ؟ فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ، ووضع رأسه على الأرض . وكان رميته للحجر توبة عن ذلك التنعم . أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجباً في فتاوى العامة ؟ .

أفترى أن نبينا محمدًا عليه السلام^(٣٠) لما شغله الثوب الذي كان عليه علم^(٣١) في

(٢٩) الوضم : خشبة الجزار التي يقطع اللحم فوقها والمراد أنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً .

(٣٠) حديث نزعه عليه السلام الذي كان عليه في الصلاة : تقدم في الصلاة أيضاً .

(٣١) علم الثوب : رسنه ورقمه

صلاته حتى نزعه^(٣٢) ، وشغله شراك^(٣٣) نعله الذي جدده حتى أعاد الشراك للخلق ، لم يعلم أن ذلك ليس واجباً في شرعه الذي شرعه لكافة عباده ؟ فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه ؟ وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثراً في قلبه أثراً يمنعه عن بلوغ المقام الحمود الذي قد وعد به ؟ .

أفترى أن الصديق رضي الله عنه بعد أن شرب اللبن ، وعلم أنه على غير وجهه ، أدخل أصبعه في حلقه ليخرجه ، حتى كاد يخرج معه روحه ، ما علم من الفقه هذا القدر ، وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ، ولا يجب في فتوى الفقه إخراجه فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه ؟ وهل كان ذلك إلا لسر وقر في صدره ، عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر ، وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون ؟ .

فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله ، وبطريق الله ؛ وبمكر الله ؛ وبمكامن الغرور بالله . وإياك مرة واحدة أن تغرك الحياة الدنيا ، وإياك ثم إياك ألف ألف مرة أن يغرك بالله الغرور^(٣٤) . فهذه أسرار من استنشق مبادي روائحها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى . في كل نفس من أنفاسه ، ولو عمر عمر نوح ، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة . ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال : لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة ، لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات . فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله ! وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة : وضاعت منه بغیر فائدة ، بكى عليها لا محالة . وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه ، كان بكاؤه منها أشد . وكل ساعة من العمر ، بل كل نفس جوهرة نفيسة ، لا خلف لها ، ولا بدل منها ، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد ، وتندنك من شقاوة الأبد . وأى جوهر أنفس من هذا ؟ فإذا ضياعها في الغفلة ، فقد

(٣٢) حديث نزعه الشراك الجديدة وإعادة الشراك للخلق : تقديم في الصلاة أيضاً .

(٣٣) شراك التعل : سير التعل على ظهر القدم .

(٣٤) الغرور : بفتح القين — الشيطان .

خسرت خبراناً مبيناً . وإن صرقتها إلى معصية ، فقد هلكت هلاكاً فاحشاً .
فإن كنت لا تبكي على هذه المصيبة ، فذلك لجهلك . ومصيتك بجهلك
أعظم . من كل مصيبة ، لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب
مصلحة . فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته ، والناس نائم ، فإذا ماتوا
انتهوا . فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ، ولكل مصاب مصيته . وقد
رفع الناس عن التدارك .

قال بعض العارفين : إن ملوك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد ، أعلمته أنه
قد بقى من عمرك ساعة ، وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين . فيبدو للعبد من
الأسف والمحسنة ما لو كانت الدنيا بمحاذيرها^(٣٥) لخرج منها ؛ على أن يضم إلى
تلك الساعة ساعة أخرى ، ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه ، فلا يجد إليه
سبيلاً . وهو أول ما يظهر من معانى قوله تعالى ﴿ وَجِيلَ يَئْتُهُمْ وَبَيْنَ مَا
يَشْتَهُونَ ﴾^(٣٦) وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدٌ كُمُّ الْمَوْتِ
فَيُقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخْرَتَنِي إِلَى أَجْلٍ قَرِيبٍ فَأَصَدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ
يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ﴾^(٣٧) فقيل الأجل القريب الذي يطلبه . معناه
أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد : يا ملوك الموت ، أخرني يوماً أعتذر فيه إلى
ربِّي وأتوب ، وأنزود صالحاً لنفسي فيقول : فنيت الأيام فلا يوم . فيقول :
فأخرني ساعة . فيقول : فنيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة ،
فيتغُرّ برؤوحه ، وتردد أنفاسه في شر أسفه ، ويتجزع غصة اليأس عن
التدارك ، وخسارة الندامة على تضييع العمر ، فيضطرُّبُ أصل إيمانه في صدمات
تلك الأحوال . فإذا زهقت نفسه ، فإن كان سبّت له من الله الحسنى ،
خرجت روحه على التوحيد ، فذلك حسن الخاتمة . وإن سبق له القضاء
بالشفوة والعياذ بالله ، خرجت روحه على الشك والاضطراب ، وذلك سوء
الخاتمة . ولمثل هذا يقال « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا
خَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي ثَبَثَ الْآنَ »^(٣٨) وقوله « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ
لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ »^(٣٩) ومعناه عن قرب عهد

(٣٥) حذافير الشيء أعلىه ونواحيه . الواحد حذافير بالكسر . مختار .

(٣٦) سبأ : ٥٤ (٣٧) المنافقون : ١٠ ، ١١ (٣٨) النساء : ١٨ (٣٩) النساء : ١٧

الخطيئة بأن يتندم عليها ، ويحو أثرها بمحنته يردها بها قبل أن تراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو .

ولذلك قال عليهما السيدة الحسنة تعمّحها « ولذلك قال لقمان لابنه : يا بني لا تؤخر التوبة ، فإن الموت يأق بعثة . ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف . كان بين خطرين عظيمين : أحدهما : أن تراكم الظلمة على قلبه من العاصي ، حتى يصير رينا^(٤٠) وطبعاً ، فلا يقبل المحو ، الثاني : أن يعاجله المرض أو الموت ، فلا يجد مهلة للاشغال بالمحو . ولذلك ورد في الخبر^(٤١) « إنَّ أَكْثَرَ صِبَاجِ أَهْلِ النَّارِ مِنَ التَّسْوِيفِ » فما هلك من هلك !! إلا بالتسويف . فيكون تسوييفه القلب نقداً ، وجلاوه بالطاعة نسيئة ، إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم . ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم . فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده ، والعمل أمانة الله عنده . وكذا سائر أسباب الطاعة . فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانته ، فأمره محظوظ . قال بعض العارفين : إن الله تعالى إلى عبده سرير ما إليه على سبيل الإلهام . أحدهما : إذا خرج من بطن أمه يقول له : عبدي ، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً ، واستودعتك عمرك وأئمتلك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة ، وانظر إلى كيف تلقاني . والثانى : عند خروج روحه يقول : عبدي ، ماذا صنعت في أمانتي عندك ؟ هل حفظتها حتى تلقاني على العهد ، فألقاك على الوفاء ؟ أو أضعتها فألقاك بالطالبة والعذاب ؟ وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾^(٤٢) وبقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاغُونَ﴾^(٤٣)



(٤٠) الرين : الطبع والدنس . يقال ران دنبة على قلبه أى غلب . قال أبو عبيدة : في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا يُلْرَانُ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى غلب . وقال الحسن رضي الله عنه : هو الذنب على الذنب حتى يسُوَّدُ القلب . وقال أبو عبيدة : كل ما غلبك فقد ران بك . ورانك وران عليك .

(٤١) حديث إن أكثر صباح أهل النار من التسويف لم أجده له أصلاً .

(٤٢) القراءة : ٤٠ . المؤمنون : ٨



الفصل الخامس

بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول ، لم تُشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة . فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن ، علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ، ومتعمق في الآخرة في جوار الله تعالى ، ومستعد لأن ينظر بعينه الباقي إلى وجه الله تعالى وعلموا أن القلب خلق سليماً في الأصل ، وكل مولود يولد على الفطرة ، وإنما تفوته السلامة بكدرورة ترهق وجهه من غيرة الذنوب وظلمتها . وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغيرة ، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة ، وأنه لا طاقة لظلم المعاشر مع نور الحسناوات . كما لا طاقة لظلم الليل مع نور النهار ، بل كما لا طاقة لكدرورة الوسخ مع بياض الصابون . وكما أن الشوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه . فالقلب المظلوم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره . وكما أن استعمال الشوب في الأفعال الخسيسة يوسع الشوب ، وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة . فاستعمال القلب في الشهوات يوسع القلب ، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ، ويطهره ، ويزكيه ، وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول ، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول . فإنما عليك التزكية والتطهير . وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلى الذي لا مرد له . وهو المسمى فلاحاً في قوله ﴿فَلَمْ يَأْفِلْ حَاجَةً مَنْ زَكَّاهَا﴾^(٤٤) .

^٩ (٤٤) الشمس :

ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجل من المشاهدة بالبصر ، أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثراً متضاداً ، يستعار لأحد هما لفظ الظلمة ، كما يستعار للجهل ، ويستعار للآخر لفظ النور ، كما يستعار للعلم ، وأن بين النور والظلمة تضاداً ضرورياً ، لا يتصور الجمع بينهما . فكأنه لم يق من الدين إلا قشوره ، ولم يعلق به إلا أسماؤه ، وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين . بل عن حقيقة نفسه ، وصفات نفسه . ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل . وأعني به قلبه . إذ بقلبه يعرف قلبه . فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه .

فمن يتوهם أن التوبة تصح ولا تقبل ، كمن يتوهם أن الشمس تطلع والظلام لا يزول ، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول . إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله ، فلا يقوى الصابون على قلعه . فمثلاً ذلك أن تراكم الذنوب حتى تصير طبعاً ورينا على القلب . فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب . نعم : قد يقول باللسان : تبت ، فيكون ذلك كقول القصار^(٤٥) بلسانه قد غسلت الثوب ، وذلك لا ينطف الشوب أصلاً ، ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به . فهذا حال امتناع أصل التوبة ، وهو غير بعيد ، بل هو الغالب على كافة الخلق المقربين على الدنيا ، المعرضين عن الله بالكلية . فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر في قبول التوبة . ولكننا نعتصد جناحه بنقل الآيات ، والأخبار ، والآثار فكل استبصر لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به . وقد قال تعالى ﴿وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي يَقْبُلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾^(٤٦) وقال تعالى ﴿غَافِرُ الذُّلُبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ﴾^(٤٧) إلى غير ذلك من الآيات .

(٤٥) القصار : الذي يدق الشياب ويبسطها ويجورها .

(٤٦) الشوري : ٢٥

(٤٧) غافر : ٣

وقال عليه السلام «الله أفرح بيتوة أحدكم» الحديث . والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة . وقال عليه السلام (٤٨) «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُسْطِعُ يَدَهُ بِالْتَّوْبَةِ لِمُسِيءِ الَّلَّيْلِ إِلَى النَّهَارِ وَلِمُسِيءِ النَّهَارِ إِلَى الَّلَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» وبسط اليد كناية عن طلب التوبة . والطالب وراء القابل ، فرب قابل ليس طالب ، ولا طالب إلا وهو قابل . وقال عليه السلام (٤٩) «لَوْ عَمِلْتُمُ الْخَطَايَا حَتَّى تَبْلُغَ السَّمَاءَ ثُمَّ نَدْمَتُمُ لِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» وقال أيضاً (٥٠) «إِنَّ الْعَبْدَ لِيَذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ» فقيل كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال «يَكُونُ نَصْبَ عَيْنِهِ ثَائِبًا مِنْهُ فَأَرَأَ حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ» وقال عليه السلام (٥١) «كَفَارَةُ الذَّنْبِ النَّدَامَةُ» وقال عليه السلام «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَلَبَ لَهُ» .

ويروى (٥٢) أن حبشيأ قال يا رسول الله ، إني كنت أعمل الفواحش ، فهل لي من توبة ؟ قال نعم . فولى ثم رجع فقال : يا رسول الله ، أكان يراني وأنا أعملها ؟ قال نعم . فصاح الحبشي بصيحة خرجت فيها روحه . ويروى (٥٣) أن

(٤٨) حديث الله يحيط به بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار — الحديث : مسلم من حديث أبي موسى بلفظ يحيط به بالليل ليتوب مسيء النهار — الحديث : وفي رواية للطبراني لمسيء الليل أن يتوب بالنهار — الحديث .

(٤٩) حديث لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم ابن ماجه من حديث أبي هريرة واسناده حسن بلفظ لو أخطأت وقل ثم تبت .

(٥٠) حديث إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة — الحديث : ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلاً ولأبي نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة أن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له — الحديث : وفيه صالح المرى وهو رجل صالح لكنه ضعيف في الحديث ولابن أبي الدنيا في التوبة من حديث ابن عمران إن الله لينفع العبد بالذنب بذنبه والحديث غير محفوظ قاله العقلي .

(٥١) حديث كفاررة الذنب الندامة : أحمد والطبراني وهر في الشعب من حديث ابن عباس وفيه يحيى بن عمر ابن مالك اليشكري ضعيف .

(٥٢) حديث إن حبشيأ قال يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل من توبة قال نعم — الحديث : لم أجده له أصلاً .

(٥٣) حديث إن الله لما لعن ابليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيمة فقال وعزتك لانخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح — الحديث : أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد ان الشيطان قال وعزتك يا رب لا أزال أغوى عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم فقال وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني أورده المصنف بصيحة ويروى كذا ولم يزره إلى النبي عليه السلام ذكره بحتياطاً

الله عز وجل لما لعن إبليس ، سأله النّظره^(٤) فأنظره إلى يوم القيمة . فقال : وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح فقال الله تعالى . وعزق وجلاي لا حجبت عنه التوبة ما دام الروح فيها . وقال عليه^(٥) « إنَّ الْحُسَنَاتِ يُذَهِّبُنَ السَّيِّئَاتِ كَمَا يُذَهِّبُ الْمَاءُ الْوَسْعَ » والأخبار في هذا لا تخصى .

وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيب : أنزل قوله تعالى **﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾**^(٦) الرجل يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب . وقال الفضيل : قال الله تعالى : بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم . وحضر الصديقين أن إن وضعت عليهم عدلي عذبتم . وقال طلق بن حبيب . إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهم : من ذكر خطيئة ألم بها ، فوجل منها قلبه ، محبت عنه في أم الكتاب .

ويروى أن نبياً من أنبياء بني إسرائيل أذنب ، فأوحى الله تعالى إليه ، وعزق لمن عدت لأعذبنك . فقال يارب ، أنت أنت ، وأنا أنا ، وعزتك إن لم تعصمني لأعودن . فعصمه الله تعالى . وقال بعضهم . إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادماً حتى يدخل الجنة . فيقول إبليس : ليتنى لم أوقعه في الذنب .

وقال حبيب بن ثابت . تعرض على الرجل ذنبه يوم القيمة ، فيمر بالذنب فيقول : أما إلى قد كنت مشفقاً منه ، قال : فيغفر له .

ويروى أن رجلاً سأله ابن مسعود عن ذنب ألم به ، هل له من توبة ؟ فأعرض عنه ابن مسعود ، ثم التفت إليه ، فرأى عينيه تذرفان . فقال له : إن

(٤) النّظره : الإمهال .. والتأجيل **﴿قَالَ رَبِّ فَانظُرْنِي إِلَى يَوْمِ يَعْلَمُونَ﴾** .. **﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** [الحجر : ٣٧]

(٥) حديث إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الواسع : لم أجده بهذا النّفظ . هو سحب المعنى وهو يعني أتبع السيئة الحسنة تمحوها رواه الترمذى وتقدم قريباً .

(٦) الأسراء : ٢٥

لبيخنة ثمانية أبواب ، كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة ، فإن عليه ملكاً موكلًا به لا يغلق ، فاعمل ولا تيأس .

وقال عبد الرحمن بن أبي القاسم . تذاكرنا مع عبد الرحيم توبه الكافر ، وقول الله تعالى ﴿إِنْ يَتَّهُوا يُعْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾^(٥٧) فقال إن لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالاً . ولقد بلغني أن توبه المسلم كإسلام بعد إسلام . وقال عبد الله بن سلام . لا أحدثكم إلا عن نبي مرسلاً ، أو كتاب متزل . إن العيد إذا عمل ذنبًا ثم ندم عليه طرفة عين ، سقط عنه أسرع من طرفة عين . وقال عمر رضي الله عنه : اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أقدمة . وقال بعضهم : أنا أعلم متى يغفر الله لي . قيل ومتى ؟ قال إذا تاب على . وقال آخر : أنا من أن أحَرَمَ التوبة أخوْفُ من أن أحَرَمَ المغفرة . أى المغفرة من لوازم التوبة وتابعها لا حالة .

ويروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ، ثم عصاه عشرين سنة . ثم نظر في المرأة فرأى الشيب في حياته ، فسأله ذلك ، فقال : إلهي أطعتك عشرين سنة ، ثم عصيتك عشرين سنة . فإن رجعت إليك أتقبلني ؟ فسمع قائلًا يقول ولا يرى شخصاً . أحببنا فأحببناك ، وتركنا فتركناك ، وعصيتنا فأمهلناك وإن رجعت إلينا قبلناك .

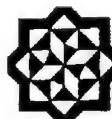
وقال ذو النون المصري رحمة الله تعالى : إن الله عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصب رواق القلوب ، وسقوها بماء التوبة ، فأشترت ندماً وحزناً . فجنوا من غير جنون ، وتبليدوا من غير عيّ ولا بكم ، وأنهم هم البلاء الفصحاء ، العارفون بالله ورسوله ، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاد ، ثم تو لهت قلوبهم في الملوك . وجالت أفكارهم بين سرايا . حجب الجبروت ، واستظلوا تحت رواق الندم ، وقرعوا صحفة الخطايا ، فأورثوا أنفسهم الجزع ، حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع ، فاستعدبوا مرارة الترك للدنيا ، واستلأنوا خشونة المضجع ، حتى ظفروا بمحبل النجاة وعروة السلامة ،

وسرحت أرواحهم في العلا ، حتى أناخوا في رياض النعيم ، و خاضوا في بحر الحياة ، وردموا خنادق الجزع و عبروا جسور الهوى ، حتى نزلوا بفناء العلم ، واستقوا من غدير الحكمة ، وركبوا سفينة الفطنة ، وأقلعوا برمح النجاة في بحر السلامة ، حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة . فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبه صحيحة فمقبولة لا محالة .

فإن قلت : أفتقول ما قالته المعتزلة ، من أن قبول التوبة واجب على الله ؟

فأقول : لا أعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله ، إلا ما يريده القائل بقوله إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ . وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش . وإنه إذا منع الماء مدة وجب العطش . وإنه إذا دام العطش وجب الموت . وليس في شيء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى . بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية ، والحسنة ماحية للسيئة ، كما خلق الماء مزيلاً للعطش ، والقدرة متعدة بخلافه لو سبقت به المشيئة . فلا واجب على الله تعالى . ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لا محالة . فإن قلت : فما من تائب إلا وهو شاك في قبول توبته والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه ، فلم يشك فيه .

فأقول : شكه في القبول كشكه في وجود شرائط الصحة . فإن للتوبة أركاناً وشروطًا دقيقة كأسائى ، وليس يتحقق وجود جميع شروطها ، كالذى يشك في دواء شربه للإسهال في أنه هل يسهل ، وذلك لشكه في حصول شرط الإسهال في الدواء ، باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبيخه ، وجودة عقاقيره وأدويته . فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة ، ووجب للشك في قبولها لا محالة ، على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله تعالى .



الركن الثاني

فيما عنه التوبة وهي الذنوب
صغارها وكوارثها

- بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد .
- بيان ما يتعلق بالعبد ، وما يتعلق بحق الله تعالى .
- بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا .
- بيان ما تعظم به الصغار من الذنوب .



الفصل الأول
بيان أقسام الذنوب
بالإضافة إلى صفات العبد
تمهيد وتهيئة

اعلم أن التوبة ترك الذنب . ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته .

وإذا كانت التوبة واجبة ، كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجباً . فمعرفة الذنب إذاً واجبة .

والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى ، في ترك أو فعل .

وتفصيل ذلك يستدعي شرح التكليفات من أولاها إلى آخرها ، وليس ذلك من غرضنا .

ولكنا نشير إلى مجتمعها وروابط أقسامها .
والله الموفق للصواب برحمته .

اعلم أن للإنسان أوصافاً وأخلاقاً كثيرة ، على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله ولكن تحصر مثارات الذنوب في أربع د

صفات ربوية ، وصفات شيطانية ، وصفات بهيمية ، وصفات سبعية . وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاق مختلفة ، فاقتصرى كل واحد من الأخلاق في المعجون منه أثراً من الآثار ، كما يقتضى السكر والخل ، والزعفران ، في السكتنجين آثاراً مختلفة .

فاما ما يقتضى النزوع إلى الصفات الربوية ، فمثل الكبر ، والفسر ، والجبرية ، وحب المدح ، والثناء ، والعز ، والغنى ، وحب دوام البقاء . وطلب الاستعلاء على الكافية ، حتى كأنه يريد أن يقول : أنا ربكم الأعلى . وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب ، غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوياً ، وهي المهلكات العظيمة ، التي هي كالآمehات لأكثر العاصي ، كما استقصيناها في ربع المهلكات .

الثانية : هي الصفة الشيطانية ، التي منها يتشعب الحسد ، والبغى ، والحيلة ، والخداع ، والأمر بالفساد والمنكر . وفيه يدخل الغش ، والنفاق ، والدعوة إلى البدع والضلal .

الثالثة : الصفة البهيمية ، ومنها يتشعب الشره ، والكلب^(٥٨) ، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج . ومنه يتشعب الزنا ، واللواط ، والسرقة وأكل مال الأيتام ، وجمع الطعام لأجل الشهوات .

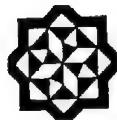
الرابعة : الصفة السبعية ، ومنها يتشعب الغضب ، والحقد ، والتهمج على الناس بالضرب والشتم ، والقتل ، واستهلاك الأموال . ويترفع عنها جمل من الذنوب .

وهذه الصفات لها تدرج في القطرة ، فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولاً ، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً ، ثم إذا اجتمعاً استعملما العقل في الخداع ، والمكر ، والحيلة ، وهي الصفة الشيطانية ، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوية ،

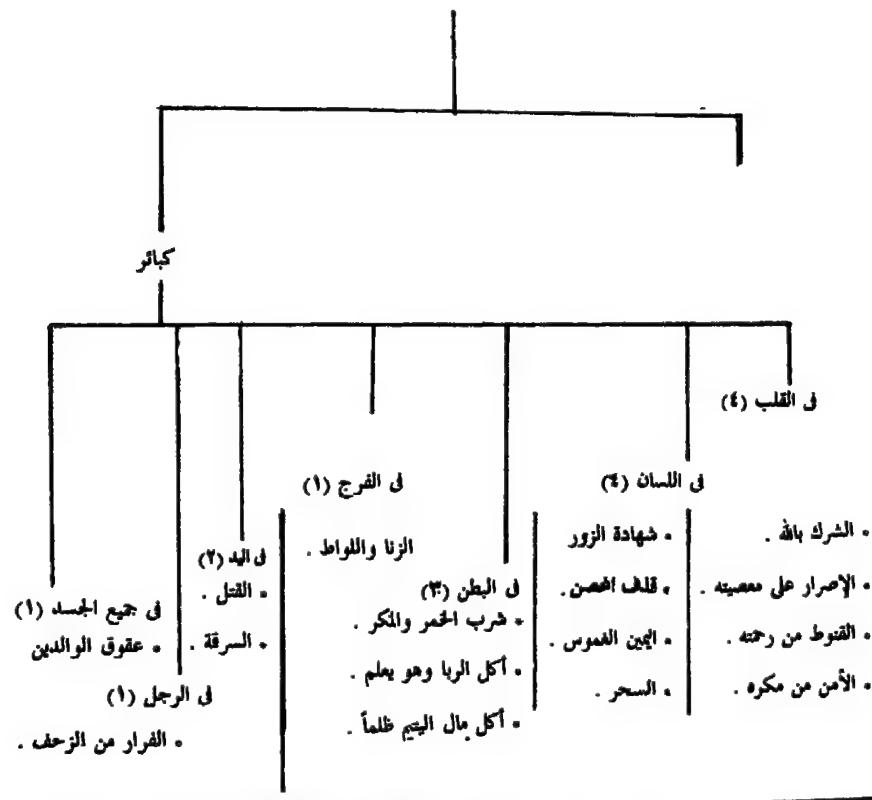
(٥٨) الكلب بالتحريك : الحرث والتكلاب على الشيء .

وهي الفخر ، والعز ، والعلو ، وطلب الكبراء ، وقصد الاستيلاء على جميع الخلق .

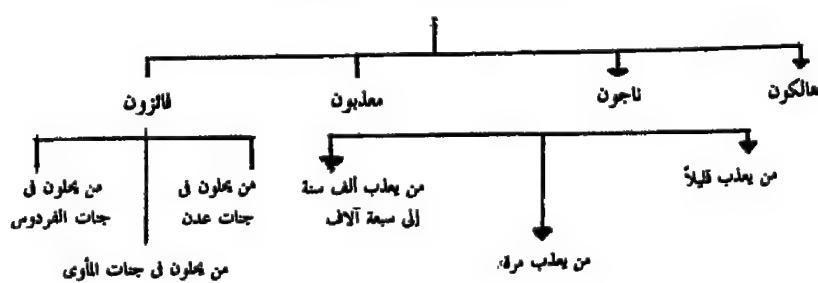
فهذه أمهات للذنوب ومتناوبها . ثم تتفجر الذنوب من هذه المتتابع على الجوارح ، فبعضها في القلب خاصة كالكفر ، والبدعة ، والنفاق ، وإضمار السوء للناس . وبعضها على العين والسمع . وبعضها على اللسان ، وبعضها على البطن والفرج ، وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن . ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح .



الذنوب التي منها ترب



أقسام الناس في الآخرة حسب ذنوبهم



A decorative horizontal border consisting of a repeating pattern of stylized, swirling, hook-like motifs, possibly representing stylized 'N' or 'S' shapes, rendered in a dark, textured style.

الفصل الثاني

بيان ما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى، وإلى ما يتعلق بمحقوق العبادة فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة، والصوم، والواجبات الخاصة به. وما يتعلق بمحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس، وغصبه للأموال، وشتمه الأعراض. وكل متناول من حق الغير فإما نفس، أو طرف، أو مال، أو عرض، أو دين، أو جاه. وتناول الدين بإلاغوء، والدعاء إلى البدعة، والتريغيب في المعاصي، وتبيح أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف، وما يتعلق بالعبد، فالأمر فيه أغلط وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركاً، فالعفو فيه أرجى وأقرب. وقد جاء في الخبر^(٥٩) «الدَّوَاوِينُ ثَلَاثَةٌ: دِيْوَانٌ يُعْفَرُ وَدِيْوَانٌ لَا يُتَرَكُ فَالدِّيْوَانُ الَّذِي يُعْفَرُ ذُنُوبُ الْعِبَادِ يَتَنَاهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمَّا الدِّيْوَانُ الَّذِي لَا يُعْفَرُ فَالشُّرُكَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَأَمَّا الدِّيْوَانُ الَّذِي لَا يُتَرَكُ فَمَظَالِمُ الْعِبَادِ» أى لا بد وأن يطالب بها حتى يعفى عنها

قسمة ثلاثة :

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر . وقد كثر اختلاف الناس فيها .
فقال قائلون : لا صغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة وهذا ضعيف إذ
قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَحْتَسِبُ عَنْهُ الْكُفَّارُ عَنْكُمْ سِيَّئَاتُكُمْ وَلَا يَحْلِمُ
مُذْهَلًا بَكَرِيًّا﴾ (١٠) وقال تعالى ﴿الَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كَبَائِرَ الْأَثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا

^{٥٩} (٥٩) حديث الراوين ثلاثة ديوان يغفر — الحديث : أحمد والحاكم وصححه من حديث س

صدقه ابن موسى الدقیقی ضعفه ابراهین وغیره ولشاهد من حدیث سلمان ورواه الطبرانی .

٣١) النساء :

اللَّمَّا (٦١) وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٦٢) «الصَّلَاةُ الْخَمْسُ وَالْجَمْعَةُ إِلَى الْجَمْعَةِ يُكَفِّرُنَّ مَا بَيْتَهُنَّ إِنْ اجْتَبَتِ الْكُبَائِرُ» وَفِي لَفْظٍ آخَرَ «كُفَّارَاتٌ لِمَا بَيْتَهُنَّ إِلَّا الْكُبَائِرُ» وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا رَوَاهُ (٦٣) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنُ الْعَاصِ «الْكُبَائِرُ الْأَشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعَقُوقُ الْوَالِدِينَ وَقَتْلُ النَّفْسِ وَالْيَمِينُ الْغَمْوُسُ».

تحديد الكبائر من الصغار

واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر ، من أربع إلى سبع ، إلى تسع ، إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك . فقال ابن مسعود ، هن أربع . وقال ابن عمر : هن سبع . وقال عبد الله بن عمرو . هن تسع . وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر : الكبائر سبع يقول : هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع . وقال مرة . كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وقال غيره : كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر . وقال بعض السلف . كل ما أوجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة . وقيل إنها مبهمة لا يعرف عددها ، كليلة القدر ، وساعة يوم الجمعة . وقال ابن مسعود لما سئل عنها . أقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله ﴿إِنْ تَجْتَبُوا كَبَائِرًا مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ (٦٤) فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب المكي . الكبائر سبع عشرة ، جمعتها من جملة الأخبار (٦٥) . وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن عمر وغيرهم ، أربعة في القلب ، وهي الشرك

(٦١) التجم : ٣ واللام : صغار الذنب

(٦٢) حديث الصلوات الخمس وال الجمعة إلى الجمعة تکفر ما بينهن إن اجتببت الكبائر : مسلم من حديث أئمـة هـرـيرـة .

(٦٣) حديث عبد الله بن عمرو الكبائر الاشراك بالله وعقوبـةـ الـوـالـدـيـنـ وـقـتـلـ النـفـسـ وـالـيـمـينـ الغـمـوـسـ وـرـوـاهـ البـخـارـيـ .

(٦٤) النساء : ٣١

(٦٥) الأخبار الواردة في الكبائر حكمي المصنف عن أبي طالب المكي أنه قال الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم الشرك بالله ، والإصرار

بالتّه ، والإصرار على معصيّته ، والقنوط من رحمةه ، والأمن من مكراه . وأربع في اللسان ، وهي شهادة الزور ، وقذف المحسن واليدين الغموس ، وهي التي يحقّ بها باطلًا أو يبطلّها حقًّا ، وقيل هي التي يقطع بها مال أمراء مسلم باطلًا ولو سواها من أراك وسميت غموساً لأنّها تغمّس صاحبها في النار ، والسرقة والفرار من الزحف ، وعقوق الوالدين ، انتهى وسأذكر ما ورد منها مرفوعاً وقد تقدّم أربعة منها في حديث عبد الله بن عمرو ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله ، وما هي قال الشرك بالله والسرقة وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحسنات المؤمنات ، ولمنا من حديث أبي بكرة لا أنفعكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، أو قال قول الزور لهما من حديث أنس سئل عن الكبائر قال الشرك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، وقال لا أنفعكم بأكبر الكبائر : قال قول الزور ، أو قال شهادة الزور ، ولمنا من حديث ابن مسعود سأله رسول الله عليه السلام أي الذنب أعظم؟ قال أن تجعل الله ندًا وهو خلقك ، قلت ثم أي؟ قال أن تقتل ولدك خافته أن يطعم معلك قلت ثم أي؟ قال أن تراني حليلة جارك ولطيراني من حديث سلمة بن قيس إنما هي أربع لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تزناوا ، ولا تسرقوا . وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت بابعوبي على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزناوا ولا تسرقوا وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس الخمر ألم القواحت ، وأكبر الكبائر وفيه موقوفاً على عبد الله بن عمرو أعظم الكبائر شرب الخمر وكلاهما ضعيف ولطهار من حديث ابن عباس بإسناد حسن أن رجلاً قال يا رسول الله ما الكبائر قال الشرك بالله ، والإيمان من روح الله ، والقنوط من رحمة الله ، وله من حديث بريدة أكبر الكبائر الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ومنع فضل الماء ، ومنع الفحل ، وفيه صالح بن حبان ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما وله من حديث أبي هريرة الكبائر أولهن الإشراك بالله ، وفيه والانتقال إلى الأعراب بعد هجرته وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف ولطهرياني في الكبير من حديث سهل بن أبي حشمة في الكبائر والعرب بعد الهجرة وفيه ابن وله في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري الكبائر سبع وفيه والرجوع إلى الأعرابية بعد الهجرة وفيه أبو بلال الأشعري ضعفه الدارقطني وللحامم من حديث عبد ابن عمير عن أبيه الكبائر تسع ذكر منها واستحلال البيت الحرام ولطهرياني من حديث وائلة إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على ما لم أقل وله أيضاً من حديثه إن من أكبر الكبائر أن يتغنى الرجل من ولده ولسلم من حديث جابر بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة ولسلم من حديث جابر بين الرجل والديه ولأنّ الشرك أو الكفر ترك الصلاة ولسلم من حديث عبد الله بن عمرو من الكبائر شتم الرجل والديه ولأنّ داود من حديث سعيد بن زيد من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق وفي الصحيحين من =

وثلاث في البطن ، وهي شرب الخمر والمسكر من كل شراب ، وأكل ما
اليثيم ظلماً ، وأكل الriba وهو يعلم . واثنان في الفرج ، وهما الزنا واللواء .

واثنان في اليدين ، وهما القتل والسرقة . وواحدة في الرجلين ، وهو الفرار
من الزحف ، الواحد من اثنين ، والعشرة من العشرين . وواحدة في جميع
الجسد ، وهي عقوق الوالدين ، قال وجملة عقوبهم أن يقسموا عليه في حق فلا
يبر قسمهما . وإن سأله حاجة فلا يعطيهما . وإن يسبه فيضر بهما . ويحيونان
فلا يطعمها .

هذا ما قاله وهو قريب ، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء ، إذ يمكن الزيادة
عليه والنقصان منه . فإنه جعل أكل الriba ومال اليتيم من الكبائر ، وهي جنابة
على الأموال ولم يذكر في كبار التفوس إلا القتل . فأما فقر العين ، وقطع
اليدين ، وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب ، فلم
يتعرض له . وضرب اليتيم وتعذيبه ، وقطع أطرافه لا شك في أنه أكبر من أكل

= حديث ابن عباس أنه ^{عَلَيْهِ الْمُبَرَّكَةُ} مر على قبرين فقال إنهم ليعذبان وما يعذبان في كبير وإنه ل الكبير أما أحدهما
فكان يمشي بالئمة وأما الآخر فكان لا يستر من بوله — الحديث : ولاحد في هذه القصة من حديث
أبي بكرة أما أحدهما فكان يأكل خوم الناس الحديث : ولأن داود والترمذى من حديث أنس عرضت
على ذنبه فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أو تهار لرجل ثم نسيها سكت عليه أبو داود
 واستغريه البخارى والترمذى وروى ابن أبي شيبة فى التوبه من حديث ابن عباس لا صغيره مع أصرار
وفيه أبو شيبة المخراساني والحديث منكر يعرف به (وأما الموقفات) فروع الطيراني والبيهقي فى الشعب عن
ابن مسعود قال الكبائر الاشتراك بالله والأمن من مكر الله والقطوط من رحمة الله واليأس من روح الله
وروى البيهقي فيه عن ابن عباس قال الكبائر الاشتراك بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله
وعقوب الوالدين وقتل النفس التي حرم الله وقدف المحتضنات وأكل مال اليتيم والفار من الرمح وأكل
الriba والسحر والزنا وأبيين الغموس الفاجرة والغلول ومنع الزكاة وشهادة الزور وكتمان الشهادة وشرب
الخمر وترك الصلاة متعمداً وأشياء مما فرضها الله وتقض المهد وقطيعة الرحم وروى ابن أبي الدنيا في
التوبه عن ابن عباس كل ذنب أصر عليه العبد كبير وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه وروى أبو منصور
الديلمى فى مستند الفروع عن أنس قوله لا صغيره مع أصرار واستناده جيد فقد اجتمع من المعرفات
والموقفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون إلا أن بعضها لا يصح استناده كما تقدم وإنما ذكرت الموقفات
حتى يعلم ما ورد فى المعرف وما ورد فى الموقف وللبيهقي فى الشعب عن ابن عباس أنه قيل له الكبائر
سبع فقال هى إلى سبعين أقرب وروى البيهقي أيضاً فيه عن ابن عباس قال كل ما نهى الله عنه كبيرة والله
أعلم .

ماله . كيف وفي الخبر «مِنَ الْكَبَائِرِ (٦٦) السُّبْتَانِ بِالسَّبَّةِ وَمِنَ الْكَبَائِرِ اسْتِطَالُ الرَّجُلِ فِي عُرْضِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ» وهذا زائد على قذف الحصن . وقال (٦٧) أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة . إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر .

وقالت طائفة كل عمَدَ كبيرة ، وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة : وكشف الغطاء عن هذا : أن نظر الناظر في المعرفة أهي كبيرة أم لا ، لا يصح ، مالم يفهم معنى الكبيرة والمراد بها . كقول القائل : السرقة حرام أم لا ، لا مطعم في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أولاً ثم البحث عن وجوده في السرقة . فالكبيرة من حيث اللفظ مهم ، ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع . وذلك لأن الكبير والصغير من المضادات ، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه ، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه . فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة ، صغيرة بالإضافة إلى الزنا . وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه صغيرة بالإضافة إلى قتله . نعم للإنسان أن يطلق على ما توعده بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة . ومعنى بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة : وله أن يطلق على ما أوجب الحد عليه مصيراً إلى أن ما عجل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيماً ، وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب النهي عنه ، فيقول تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمتها ، ثم يكون عظيماً وكبيرة لا محالة بالإضافة . إذ من صفات القرآن أيضاً تفاوت درجاتها .

(٦٦) حديث من الكبار السنستان بالسبة ومن الكبار استطالة الرجل في عرض أخيه المستثم : عزاه أبو منصور الديلمى فى مستند الفردوس لأحمد وأوى داود من حديث سعيد بن زيد والذى عندهما من حديثه من أوى إلى ما استطالة فى عرض المسلم بغير حق كما قدم .

(٦٧) حديث أبي سعيد الخدري وعيوه من الصحابة إنكم تعلمون أعمالاً هي أدق في عينكم من الشعر
كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر أئمدة والبزار بست صحيحة وقال من الموبقات . بدل
الكبائر ورواه البخاري من حديثه أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن فرس و قال صحيح الاستناد

فهذه الإطلاقات لا حرج فيها . وما نقل من ألفاظ الصحابة يتعدد بين هذه الجهات ، ولا يبعد تنزيتها على شيء من هذه الاحتمالات . نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى ﴿إِنْ تَعْجِبُوا كَبَائِرَ مَا تُهْوِنُ عَنْهُ لَكَفَرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتُكُمْ﴾^(٦٨) وقول رسول الله عليه السلام ﴿الصَّلَوَاتُ كَفَارَاتٌ لِمَا يَنْهَى إِلَّا الْكَبَائِرُ﴾ فإن هذا إثبات حكم الكبائر .

تحديد الغرالي في الفرق بين الصغيرة والكبيرة

والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها . وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصغار ، وإلى ما يشك فيه فلا يدرى حكمه : فالطمع في معرفة حد حاصر ، أو عدد جامع مانع ، طلب لما لا يمكن . فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله عليه السلام ، بأن يقول إن أردت بالكبائر عشرًا ، أو خمساً ، ويفصلها ، فإن لم يرد هذا ، بل ورد في بعض الألفاظ^(٦٩) ثلاث من الكبائر ، وفي بعضها^(٧٠) سبع من الكبائر . ثم ورد أن السنتين بالنسبة الواحدة من الكبائر ، وهو خارج عن السبع والثلاث ، علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر . فكيف يطمع في عدد ما لم يعده الشرع ! وربما قصد الشرع إيهامه ليكون العباد منه على وجل ، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس في طلبها . نعم لنا سبيل كل يمكنا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها

(٦٨) النساء : ٣١

(٦٩) حديث ثلاث من الكبائر : الشیخان من حديث أبى بكرة ألا أبیکم بأكبير الكبائر ثلاثا — الحديث : وقد تقدم .

(٧٠) حديث سبع من الكبائر : طب في الأوسط من حديث أبى سعيد الكبائر سبع وقد تقدم وفى الكبير من حديث عبد الله بن عمر من صلوات الخمس واجتب الكبائر — الحديث : ثم عدهن سبعا وتقدم عن الصحيحين حديث أبى هريرة اجتبوا السبع المبقيات .

بالتحقيق . وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقرير ونعرف أيضاً أكبر الكبائر .
فاما أصغر الصغار فلا سبيل إلى معرفته .

وبيانه أيضاً أنا نعلم بشهاد الشرع وأنوار البصائر جميعاً ، أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى ، وسعادة لقائه . وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاتاته ، وكتبه ورسله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّا وَالْأَنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ ﴾^(٧١) أي ليكونوا عبيداً لي . ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربه بالربوبية ، ونفسه بالعبودية .
ولا بد أن يعرف نفسه وربه . فهذا هو المقصود الأقصى بعثة الأنبياء . ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله عليه السلام ^(٧٢) « الْذِيَا مَرْغُوْرَةُ الْآخِرَةِ » فصار حفظ الدنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدين ، لأنه وسيلة إليه .
والمعتل من الدنيا بالأخرة شيئاً : النفوس والأموال . فكل ما يسد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر . ويليه ما يسد باب حياة النفوس ، ويليه ما يسد باب المعيش التي بها حياة النفوس ، فهذه ثلاثة مراتب .

فحفظ المعرفة على القلوب ، والحياة على الأبدان ، والأموال على الأشخاص ، ضروري في مقصود الشرائع كلها ، وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن يختلف فيها الملل . فلا يجوز أن الله تعالى يبعث نبياً يريد بيعته إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ، ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسle ، أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال . فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاثة مراتب .

(٧١) النذريات : ٥٦ .

(٧٢) حديث الدنيا مرمرة الآخرة : لم أجده بهذا اللفظ مرفوعاً وروى العقيلي في الضغفاء أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم نعمت النار الدنيا لن تزود منها لآخرته الحديث : واستاده ضعيف .

المرتبة الأولى من الكبائر (الكفر)

الأولى : ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسleه ، وهو الكفر . فلا كبيرة فوق الكفر . إذا الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل . والوسيلة المقربة له إليه وهو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته ، وبعده بقدر جهله . ويتلlo الجهل الذي يسمى كفراً ، الأمان من مكر الله ، والقنوط من رحمته . فإن هذا أيضاً عين الجهل . فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمناً ، ولا أن يكون آيساً . ويتلlo هذه الرتبة البدع كلها ، المتعلقة بذات الله ، وصفاته ، وأفعاله . وبعضها أشد من بعض . وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها ، وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه ، وبأفعاله ، وشرائعه ، وبأوامره ، ونواهيه ومراتب ذلك لا تنحصر وهي تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن وإلى ما يعلم أنه لا يدخل ، وإلى ما يشك فيه . وطلب دفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مطعم .

المرتبة الثانية من الكبائر (القتل)

ما يتعلق بالنفوس

المرتبة الثانية : النفوس . إذ يبئها وحفظها تدوم الحياة ، وتحصل المعرفة بالله . قتيل النفس لا محالة من الكبائر ، وإن كان دون الكفر . لأن ذلك يصد عين المقصود ، وهذا يصدم وسيلة المقصود . إذ حياة الدنيا لا تردد إلا للآخرة ، والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى .

قطع الأطراف

ويتلlo هذه الكبيرة قطع الأطراف . وكل ما يفضي إلى الملائكة ، حتى الضرب . وبعضها أكبر من بعض .

الزنا واللواط

ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط ، لأنه لو اجتمع الناس على الاتكفاء . بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل ، ودفع الموجود قریب من قطع الوجود . وأما الزنا فإنه لا يفوت أصل الوجود ، ولكن يشوش الانساب . ويطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التي لا يتنظم العيش إلا بها . بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنا ، ولا يتنظم أمور البهائم مالم يتميز الفحل منها . وإناث يختص بها عن سائر الفحول ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحاً في أصل شرع قصد به الإصلاح . وينبغى أن يكون الزنا في الرتبة دون القتل ، لأنه ليس يفوت دوام الوجود ، ولا يمنع أصله ، ولكنه يفوت تمييز الأسباب ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضي إلى التقاتل . وينبغى أن يكون أشد من اللواط ، لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين ، فيكثر وقوعه ، ويعظم أثر الضرر بكثرة .

المরتبة الثالثة من الكبائر (ما يتعلق بالأموال)

المরتبة الثالثة : الأموال . فإنها معايش الخلق ، فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا ، حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما . بل ينبغي أن تخفظ لتبقى بيقائدها النفوس . إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها ، وإن أكلت أو مكن تغريمها . فليس يعظم الأمر فيها نعم : إذا جرى تناولها بطريق بعض التدارك له ؛ فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر وذلك بأربع طرق .

السرقة :

أحدها : الخفية ، وهي السرقة . فإنه إذا لم يطلع عليه غالب

أكل مال اليتيم :

الثاني : أكل مال اليتيم . وهذا أيضاً من الخفية . وأعني به في حق الولي والقيم ، فإنه مؤمن فيه ، وليس له خصم سوى اليتيم ، وهو صغير لا يعرفه . فتعظيم الأمر فيه واجب ، بخلاف الغصب فإنه ظاهر يعرف ، وبخلاف الخيانة في الوديعة ، فإن المودع خصم فيه يتصف لنفسه .

شهادة الزور :

الثالث : تفوتها بشهادة الزور .

اليدين الغموس :

الرابع : أخذ الوديعة وغيرها باليدين الغموس^(٧٣) . فإن هذه طريقة لا يمكن فيها التدارك . ولا يجوز أن تختلف الشرائع في تحريمها أصلاً ، وبعضها أشد من بعض ، وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس .

وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبار ؛ وإن لم يوجب الشرع الحد في بعضها ولكن أكثر الوعيد عليها ، وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها

أكل الربا :

وأما أكل الربا . فليس فيه إلا أكل مال الغير بالتراضى ، مع الإخلال بشرط وضعه الشرع . ولا يبعد أن تختلف الشرائع في مثله . وإذا لم يجعل الغصب الذى هو أكل مال الغير بغير رضاه ، وبغير رضا الشرع من الكبار ، فأكل الربا أكل برضاء المالك ، ولكن دون رضا الشرع . وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضاً الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة . والمصير إلى أن أكل دائق بالخيانة أو الغصب من الكبار فيه نظر . وذلك واقع في مظنة الشك . وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبار ، بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما

(٧٣) الغموس : الكاذبة التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار .

لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضرورياً في الدين .

فيقىء ما ذكره أبو طالب المكى : القذف ، والشرب ، والسحر ، والفرار من الزحف ، وعقوق الوالدين .

شرب الخمر :

أما الشرب لما يزيل العقل ، فهو جدير بأن يكون من الكبائر . وقد دل عليه تشدیدات الشرع وطريق النظر أيضاً . لأن العقل محظوظ ، كما أن النفس محظوظة بل لا خير في النفس دون العقل . فإذا أزال العقل من الكبائر . ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر ، فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة . وإنما هو شرب ماء نجس . والقطرة وحدها في محل الشك . وإيجاب الشرع الحد به على تعظيم أمره ، فيعد ذلك من الكبائر بالشرع . وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع فإن ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع ، وإن فلتوقف فيه مجال .

القذف :

وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض ، والأعراض دون الأموال في الريبة . ولتناولها مراتب . وأعظمها التناول بالقذف ، بالإضافة إلى فاحشة الزنا ، وقد عظم الشرع أمره . وأظن ظنًا غالباً أن الصحابة كانوا يعدون كل ما يحب به الحد كبيرة ، فهو بهذا الاعتبار لا تکفره الصلوات الخمس ، وهو الذي نريده بالكبيرة الآن . ولكن من حيث أنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع ، فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته . بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنساناً يزني ، فله أن يشهد ، وينجلد المشهود عليه بمجرد شهادته . فإن لم تقبل شهادته فحده ليس ضرورياً في مصالح الدنيا ، وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات . فإذاً هذا أيضاً يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع . فاما من ظن أن له أن يشهد وحده ، أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره ، فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر .

السحر :

وأما السحر ، فإن كاذ فيه كفر فكبيرة ، وإلا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس ، أو مرض ، أو غيره .

القرار من الزحف وعقوب الوالدين :

وأمد القرار من الزحف وعقوب الوالدين فهذا أيضاً ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف . وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنا ، وضرهم ، والظلم لهم بغضب أموالهم ، وإنزاجهم من مساكنهم وببلادهم وإحلائهم من أوطانهم ، ليس من الكبائر إذ لم ينفل ذلك في السبع عشرة كبيرة ، وهو أكبر ما قبل فيه ، فالتوقف في هذا أيضاً غير بعيد ، ولكن الحديث يدل على تسميتها كبيرة فليتحقق بالكتاب .

فإذا زجع حاصل الأمر إلى أنا نعني بالكبيرة ما لا تکفره الصلوات الخمس بحكم الشرع وذلك مما انقسم إلى ما علم أنه لا تکفره قطعاً ، وإلى ما ينبغي أن تکفره ، وإلى ما يتوقف فيه والمتوقف فيه بعضه مظنون للنبي والإثبات ، وبعضه مشكوك فيه ، وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة . وإذا لا مطعم فيه ، فطلب رفع الشك في حال .

فإن قلت : فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدتها . فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حدده .

فاعلم أن كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإبهام ، لأن دار التكليف هي دار الدنيا . والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث إنها كبيرة . بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها ، كالسرقة والزنا وغيرهما . وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تکفرها . وهذا أمر يتعلق بالآخرة ، والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر ، فلا يتجزعون على الصغار اعتقاداً على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر يکفر " مغار " بمحض قوله تعالى **إِنْ تَعْتَقِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهِيُنَّ عَنْهُ لَكَفَرْ عَنْكُمْ**

سِيَّاتُكُمْ ^(٧٤) ولكن اجتناب الكبيرة إنما يکفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة . كمن يتمكن من امرأة ، ومن مواقعتها ، فيکف نفسه عن الواقع ، فيقتصر على نظر أو لمس فإن مجاهدة نفسه بالکف عن الواقع ، أشد تأثيراً في تنویر قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه . فهذا معنى تکفيره . فإن كان عنيباً ، أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز ، أو كان قادراً ولكن استمع لخوف أمر آخر ، فهذا لا يصلح للتکفير أصلًا وكل من لا يشتهي الخمر بطبيعه ، ولو أیبح له لما شربه ، فاجتنابه لا يکفر عنه الصغارى التي هي من بقدماته ، كسمع الملاهى والأوتار . نعم : من يشتهي الخمر وسماع الأوتار ، فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ، ويطلقها في السماع ، فمجاهدته النفس بالکف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع .

فكل هذه أحكام أخرىوية ، ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك ، وتكون من المتشابهات ، فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ، ولم يرد النص بعد ، ولا جد جامع ، بل ورد باللفاظ مختلفات . فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله عليه السلام ^(٧٥) « الصلوة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلث إشراك بالله وترك السنة ونکث الصدقه » قيل ما ترك السنة ؟ قيل الخروج عن الجماعة ، ونکث الصدقه أن يبایع رجلاً ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله . وهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع ، فيبقى لا محالة مبهماً .

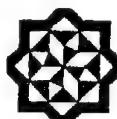
فإن قلت الشهادة لا تقبل إلا من يجتنب الكبائر ، والورع عن الصغارى ليس شرطاً في قبول الشهادة ، وهذا من أحكام الدينا ، فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر . فلا خلاف في أن من يسمع الملاهى ، ويلبس الديباج ، ويتحتم بخاتم الذهب ، ويشرب في أواني الذهب والفضة ، لا تقبل شهادته ، ولم

(٧٤) النساء : ٣١.

(٧٥) حديث الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلث إشراك بالله وترك السنة ونکث الصدقه — الحديث : الحكم من حديث أبي هريرة نحوه وقلل صريح الاسناد .

يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر . وقال الشافعى رضى الله عنه : إذا شرب الحنفى النبيذ حددته ، ولم أرد شهادته . فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ، ولم يرد به الشهادة . فدل على أن الشهادة نفياً وإثباتاً لا تدور على الصغار والكبار بل كل الذنوب تقدح في العدالة ، إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالباً بضرورة مجرى العادات ، كالغيبة ، والتجسس ، وسوء الظن ، والكذب في بعض الأقوال ، وسماع الغيبة ، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأكل الشبهات ، وسب الولد والغلام ، وضربها بحكم الغضب زائداً على المصلحة ، وإكرام السلاطين الظلمة ، ومصادقة الفجار ، والتکاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين . فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ، ويتجزد لأمور الآخرة ، ويجهد نفسه مدة بحيث يبقى على سنته مع الخالطة بعد ذلك . ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده ، وبطلت الأحكام . والتيارات . وليس لبس الحرير ، وسماع الملاهي ، واللعبة بالترد ، ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب ؛ والخلوة بالأجنبيات ، وأمثال هذه الصغار من هذا القبيل . فإلى مثل هذا النهاج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردها ، لا إلى الكبيرة والصغيرة .

ثم آحاد هذه الصغار التي لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لأثر في رد الشهادة . كمن اتخذ الغيبة وثبت الناس عادة . وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم . والصغيرة تكبر بالمواظبة ، كما أن المباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعبة بالشطرنج ، والترنم بالغناء على الدوام وغيره . فهذا بيان حكم الصغار والكبائر .





الفصل الثالث

بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا .

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة ، والآخرة من عالم الغيب والملائكة . وأعني بالدنيا حالتك قبل الموت ، وبالآخرة حالتك بعد الموت . فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الداني منها دنيا ، والتأخر آخرا . ونحن الآن نتكلّم من الدنيا في الآخرة فإننا الآن نتكلّم في الدنيا وهو عالم الملك ، وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملائكة .

ولا يتصور شرح عالم الملائكة في عالم الملك إلا بضرب الأمثال . ولذلك قال تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأُمَثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾^(٣١) وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملائكة . ولذلك قال عليه السلام^(٧٧) «النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا اتَّبَهُوا» وما سيكون في اليقظة لا يتبيّن لك في النوم ، إلا الأمثال المحجوبة إلى التعبير ، فكذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبيّن في نوم الدنيا إلا في كثرة الأمثال ، وأعني بكثرة الأمثال ما تعرّفه من علم التعبير .

ويكفيك منه إن كنت فطناً ثلاثة أمثلة . فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال : رأيت كأن في يدي خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء . فقال إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر . قال صدقت . وجاء رجل آخر فقال : رأيت كأنني أصب الزيت في الريتون . فقال إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حاتها ، فإنها أملك سبيّت في صغرك ، لأن الريتون أصل

^(٧٦) العنكبوت : ٤٣ .

^(٧٧) حديث الناس يوم فإذا ماتوا اتبهوا : لم أجده مرفوعاً وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب .

الزيب . فهو يرد إلى الأصل . فنظر فإذا جاريته كانت أمه ، وقد سببت في صغره . وقال له آخر : رأيت كأنى أقلد الدر في عنان الخنازير . فقال إنك تعلم الحكمة غير أهلها ، فكان كما قال .

والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال . وإنما يعني بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجد صادقاً . وإن نظر إلى صورته وجده كاذباً . فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذباً ، فإنه لم يختم به فقط . وإن نظر إلى معناه وجد صادقاً ، إذ صدر منه روح الختم ، ومعناه ، وهو المنع الذي يراد الختم له . وليس للأنبياء أن يتكلموا معخلق إلا بضرب الأمثال ، لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، وقدر عقولهم أنهم في النوم ، والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل ، فإذا ما تروا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق . ولذلك قال عليه السلام ^(٧٨) « قلب المؤمن بين أصابعين من أصابع الرحمن » وهو من المثال الذي لا يعقله إلا العاملون . فاما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثال ، بل هلله بالتفسير الذي يسمى تأويلاً ، كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيراً ، فيثبت الله تعالى يداً وأصبعاً ، تعالى الله عن قوله علوًّا كبيراً .

وكذلك في قوله عليه السلام ^(٧٩) « إن الله خلق آدم على صورته » فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل وال الهيئة ، فيثبت الله تعالى مثل ذلك تعالى الله عن قوله علوًّا كبيراً .

ومن هنا زل من زل في صفات إلهية ، حتى في الكلام ، وجعلوه صوتاً وحرفاً إلى غير ذلك من الصفات ، والقول فيه يطول .

وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحدين ، بجمود نظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده كقوله عليه السلام ^(٨٠) « يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي

(٧٨) حديث قلب المؤمن بين أصابعين من أصابع الرحمن : تقدم .

(٧٩) حديث أن الله خلق آدم على صورته : تقدم .

(٨٠) حديث يؤتي بالموت يوم القيمة في صورة كبش أملح فيذبح : متفق عليه من حديث أبي سعيد .

صُورَةُ كَبِشِ أَمْلَحٍ فِيَذْبَحِ ، فيثور المحدث الأحقن ويكتتب ، ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول : يا سبحان الله : الموت عرض ، والكبش جسم ، فكيف ينقلب العرض جسماً هل هذا إلا محال ! ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة أسراره فقال ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾^(٨١) ولا يدري المسكين أن من قال : رأيت في منامي أنه جيء بكبش ، وقيل هذا هو الوباء الذي في البلد ، وذبح ، فقال المعتبر : صدق ، والأمر كما رأيت ، وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط ، لأن المذبح وقع اليأس منه ، فإذا ذن المعتبر صادق في تصديقه ، وهو صادق في رؤيته . وترجع حقيقة ذلك إلى أن الموكل بالرؤيا ، وهو الذي يطلع الأرواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ ، عرفه بما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لأن النائم إنما يتحمل المثال . فكان مثاله صادقاً ، وكان معناه صحيحاً .

فالرسل أيضاً يكلمون الناس في الدنيا ، وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم ، فيوصلون المعانى إلى أنفهمهم بالأمثلة ، حكمة من الله ، ولطفاً بعباده ، ويسيراً لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل . فقوله يؤتي بالموت في صورة كبش أملح ، مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت ، وقد جبت القلوب على التأثر بالأمثلة ، وثبتت المعانى فيها بواسطتها . ولذلك عبر القرآن بقوله ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٨٢) عن نهاية القدرة ، وعبر ﷺ بقوله « قلب المؤمن بين أصابع الرحمن » عن سرعة التقليل وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات ، فلنرجع الآن إلى الغرض .

فالقصد أن تعريف توزع الدرجات والدرجات على الحسنات والسيئات ، لا يمكن إلا بضرب المثال ، فلتفهم من المثل الذي نضربه معناه لا صورته فنقول :

(٨١) العنكبوت : ٤٣

(٨٢) يس : ٨٢

الناس في الآخرة ينقسمون أصنافاً وتنقسم درجاتهم ودرجاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتاً لا يدخل تحت الحصر ، كما تفاوتوا في السعادة الدنيا وشقاوتها . ولا تفارق الآخرة في هذا المعنى أبداً . فإن مدبر الملك والملكون واحد لا شريك له ، وسته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبديل لها ، إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات ، فلا نعجز عن إحصاء الأجناس فنقول :

أقسام الناس في الآخرة

الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعدبين . وناجين وفائزين . ومثاله في الدنيا أن يستولي ملك من الملوك على إقليم ، فيقتل بعضهم فهم المالكون ويذهب بعضهم مدة ولا يقتلهن فهم المعدبون ، ويخلع بعضهم فهم الناجون ، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون . فإن كان الملك عادلاً ، لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك ؛ معانداً له في أصل الدولة . ولا يذهب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجه . ولا يخلع إلا معترضاً له برتبة الملك ، لكنه لم يقصر ليذهب ولم يخدم ليخلع عليه . ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة ، ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة ، وإهلاك الهالكين إما تحييناً بغير الرقبة ، أو تشكيلًا بالمثلة ، بحسب درجاتهم في المعاناة ، وتعذيب المعدبين في الخسنة ، والشدة ، وطول المدة وقصرها ، واتحاد أنواعها واختلافها ، بحسب درجات تقصيرهم .

فتقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تختص ولا تنحصر . فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون . فمن هالك ، ومن معدب مدة ، ومن ناج يخلع في دار السلام . ومن فائز والفائزون ينقسمون إلى من يخلون في جنات عدن ، أو جنات المؤوى أو جنات الفردوس . والمعدبون

ينقسمون إلى من يعذب قليلاً، وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة، وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد في الخبر^(٨٣). وكذلك الحالون الآيسون من رحمة الله تفاوت دركاتهم. وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي، فلنذكر كيفية توزيعها عليها.

رتبة الحالكين :

الرتبة الأولى : وهي رتبة الحالكين . وتعنى بالحالكين الآيسين من رحمة الله تعالى ، إذ الذى قتله الملك في المثال الذى ضربناه أيس من رضا الملك وإكرامه ، فلا تغفل عن معانى المثل . وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين ، المتجردين للدنيا ، المكذبين بالله ورسله وكتبه . فإن السعادة الأخرىية في التقرب من الله والنظر إلى وجهه ، وذلك لا ينال أصلاً إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان والتصديق . والجاحدون هم المنكرون . والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد ، وهم الذين يكذبون برب العالمين ، وأنبيائه المرسلين ، إنهم عن ربهم يومئذ محظوظون لا محالة ، وكل محظوظ عن محظوظ فمحول بينه وبين ما يشتهي لا محالة . فهو لا محالة يكون مخترقاً نار جهنم بنار الفراق . ولذلك قال العارفون : ليس خوفنا من نار جهنم ، ولا رجائنا للحور العين ، وإنما مطلبنا اللقاء ، ومهربنا من الحجاب فقط ، وقالوا : من يعبد الله بعوض فهو ثيم ، كأن يعيده لطلب جنته . أو لخوف ناره بل العارف يعيده لذاته ، فلا يطلب إلا ذاته فقط . فأما الحور العين والفواكه ، فقد لا يشتهيا . وأما النار ، فقد لا يتقيها . إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلت النار الحرقية للأجسام . فإن نار الفراق نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفداء . ونار جهنم

(٨٣) حديث أن آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة : الترمذى الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه وأطهراً مكثاً فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلـى يوم القيمة وذلك سبعة آلاف سنة .

لا شغل لها إلا مع الأجسام ، وألم الأجسام يستحق مع ألم الفؤاد ، ولذلك قبل :

وفي فؤاد الحب نار جوى أحمر نار الجحيم أبدهما

ولا ينبغي أن تذكر هذا في عالم الآخرة ، إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا ، فقد رأى من غالب عليه الوجد فغدا على النار ، وعلى أصول القصب الجارحة للقدم ، وهو لا يحس به لفروط غلبة ما في قلبه . وترى الغضبان يستولى عليه الغضب في القتال ، فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال ، لأن الغضب نار في القلب . قال رسول الله ﷺ («الغضب قطعةٌ من النار») واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد ، والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه ، فليس الهاجك من النار والسيف ، إلا من حيث إنه يفرق بين جزأين . يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكן في الأجسام . فالذى يفرق بين القلب وبين محبوبه الذى يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاماً من تأليف الأجسام ، فهو أشد إيلاماً إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب . ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ، ويستحقه بالإضافة إلى ألم الجسم . فالصبي لو خير بين ألم الحرمان عن الكراهة والصومان . وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان ، لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلاً ، ولم يعد ذلك أبداً ، وقال . العدو في الميدان مع الصومان ، أحب إلى من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه . بل من تغلبه شهوة البطن ، لو خير بين الهريسة والحلواء ، وبين فعل جليل يقهر به الأعداء ، ويفرح به الأصدقاء ، لآثار الهريسة والحلواء .

وهذا كله لقد المعنى الذى بوجوده يصير الجاه محبوباً ، ووجود المعنى الذى بوجوده يصير الطعام لذيناً . وذلك لمن استرقته صفات الباهم والسباع ، ولم تظهر فيه صفات الملائكة التى لا يناسبها ولا يلذها إلا القرب من رب العالمين ، ولا يئملها إلا البعد والمحاجب . وكما لا يكون النون إلا في اللسان ،

(٨٤) حديث الغضب قطعة من النار : الترمذى من حديث أبي سعيد الخدجى وقد تقدم .

والسمع إلا في الآذان ، فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب : فمن لا قلب له ليس له هذا الحس ، كمن لا سمع له ولا بصر ، ليس له لنفحة الألحان ، وحسن الصور والألوان . وليس لكل إنسان قلب . ولو كان لما صرّ قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَدِينًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾^(٨٥) فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلساً من القلب . ولست أعني بالقلب هذا الذي تكتبه عظام الصدر ؛ بل أعني به السر الذي هو من عالم الأمر . وهو اللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه ، والصدر كرسيه ، وسائر الأعضاء عالمه وملكته والله الخلق والأمر جيئاً . ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَنْفُسِ رَبِّي﴾^(٨٦) هو الأمير والملك : لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيباً ، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق وهو اللطيفة التي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه .

وعند ذلك يشم العبد مباديء رواحة المعنى المطوى تحت قوله عليه عليه السلام ﴿إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ﴾ ونظر بعين الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه ، وإلى المتعسفين في طريق تأويله وإن كانت رحمة الله للحاملين على اللفظ أكثر من رحمة للتعسفين في التأويل لأن الرحمة على قدر المصيبة ، ومصيبة أولئك أكثر ، وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر . فالحقيقة فضل الله يؤتّيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . وهي حكمته يختص بها من يشاء ، ومن يؤتّ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً .

ولنعد إلى الغرض ، فقد أرخيانا الطول وطولنا النفس ، في أمر هو أعلى من علوم المعاملات التي نقصدها في هذا الكتاب . فقد ظهر أن رتبة الملائكة ليس إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله ورسوله عليه عليه السلام لا تدخل تحت الحصر ، فلذلك لم نوردها .

الرتبة الثانية : رتبة المعدين . وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ، ولكن قصر في الوفاء ، فإن رأس الإيمان هو التوحيد ، وهو أن لا يعبد إلا الله . ومن

بعض هواه فقد اتخذ إلهه ، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة . بل معنى قوله لك لا إله إلا الله ، معنى قوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ تُمَّ ذَرْهُمْ فِي حُوَصِّبِهِمْ يَأْلَعُونَ﴾^(٨٧) وهو أن تذر بالكلية غير الله ، ومعنى قوله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ تُمَّ اسْتَقَامُوا﴾^(٨٨) وما كان الصراط المستقيم الذي لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، مثل الصراط الموصوف في الآخرة ، فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير ، إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل ، وذلك قادر في كمال التوحيد ، بقدر ميله عن الصراط المستقيم . لذلك يقتضي لا محالة نقصاناً في درجات القرب . ومع كل نقصان ناران : نار الفراق لذلك الكمال الفائق بالنقصان ، ونار جهنم كما وصفها القرآن . فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معدياً مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته ، وتفاوته بحسب طول المدة ، إنما يكون بسبب أمرين : أحدهما قوة الإيمان وضعفه ، والثاني كثرة اتباع الهوى وقلته .

وإذ لا يخلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين ، قال الله تعالى ﴿وَإِنْ يَنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَمْنَا مَقْضِيًّا ثُمَّ لَتَجْئِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَلَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِيَّشًا﴾^(٨٩) ولذلك قال الخائفون من السلف . إنما خوفنا لأننا بيقينا أنا على النار واردون ، وشككتنا في النجاة . ولما روى الحسن الخبر الوارد^(٩٠) فيمن يخرج من النار بعد ألف عام . وأنه ينادي يا حنان يا منان . قال الحسن : يا ليتني كنت ذلك الرجل .

واعلم أن في الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة ، وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة ، حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرى خاطف ، ولا يكون له فيها لبث . وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة ، من اليوم ، والأسبوع ، والشهر ، وسائر المدد .

^(٨٧) الأنعام : ٩١ ^(٨٨) فصلت : ٣٠ ^(٨٩) مريم : ٧١ ، ٧٢

^(٩٠) حديث من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادي يا حنان يا منان : أحمد وابو يعلى من روایة أبي جعفر القسملي عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسم هلال بن ميمون

وإن الاختلاف بالشدة لا نهاية لأعلاه ، وأدنى التعذيب بالمناقشة في الحساب ، كأن الملاع قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ؛ ثم يعموا . وقد يضرب بالسياط ، وقد يعذب بنوع آخر من العذاب .

ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة ، وهو اختلاف الأنواع إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط ، كمن يعذب بأخذ المال ، وقتل الولد واستباحة الحريم ، وتعذيب الأقارب ، والضرب ، وقطع اللسان ، واليد ، والأنف ، والأذن وغيره . فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة ، دل عليها قواعظ الشرع . وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه ، وكثرة الطاعات وقلتها ، وكثرة السيئات وقلتها .

أما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها . وأما كثرته فيكثرتها . وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات . وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان ، وهو المعنى بقوله تعالى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَيْدِ﴾^(٩١) وبقوله تعالى ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾^(٩٢) وبقوله تعالى ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٩٣) وبقوله تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِتْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٩٤) إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة ، من كون العقاب والثواب جراء على الأعمال . وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه . وجانب العفو والرحمة أرجح ، إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا عليه السلام^(٩٥) «سَبَقْتَ رَحْمَتِي غَضَبِي» وقال تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ حَسَنَةً يُضَاعِفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٩٦) فإذاً هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات ، معلومة بقواعد الشرع ونور المعرفة فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظناً ، ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار .

(٩٤) الزلازل : ٧ ، ٨ (٩٥) فصلت : ٤٦ (٩٦) غافر : ١٢ (٩٧) التجم : ٣٩
 (٩٨) حديث سبقت رحمتي غضبي : مسلم من حديث أبي هريرة .
 (٩٩) النساء : ٤٠

فنقول كل من أحکم أصل الإيمان ، واجتب جميع الكبائر ، وأحسن جميع الفرائض ، أعني الأركان الخمسة ، ولم يكن منه إلا صغار متفرقة لم يصرّ عليها ، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط . فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته . إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمس ، والجمعة وصوم رمضان ، كفارات لما بينهن . وكذلك اجتناب الكبائر بحکم نص القرآن مکفر للصغراء . وأقل درجات التکفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب . وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان ، وبعد الفراغ من الحساب ، في عيشة راضية .. نعم : التھاوة بأصحاب العین ، وبالمقربين ، ونزوله في جنات عدن ، أو في الفردوس الأعلى ، فكذلك يتبع أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيماناً : تقليدياً كإيمان العوام ، يصدقون بما يستمعون ويستمرون عليه ، وإيمان كشفي يحصل بانشراح الصدر بنور الله ، حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه فيتضيق أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره ، إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله . فهذا الصنف هم المقربون النازلون في الفردوس الأعلى ، وهم على غاية القرب من الملأ الأعلى ، وهم أيضاً على أصناف : فمنهم السابقون ، ومنهم من دونهم . وتقاويمهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى : ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تتحصر ، إذ الإحاطة بكله جلال الله غير ممكنة ، وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق ، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم ، وبقدر ما سبق لهم من الله تعالى في الأزل . فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمنازله فالسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم .

وأما المؤمن إيماناً تقليدياً من أصحاب العین . ودرجته دون درجة المقربين . وهم أيضاً على درجات : فالأعلى من درجات أصحاب العین تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقربين هذا حال من اجتب كل الكبائر ، وأدى الفرائض كلها . أعني الأركان الخمسة ، التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان ، والصلوة ، والزكاة ، والصيام ، والحج .

فاما من ارتكب كبيرة أو كبائر ، أو أهمل بعض أركان الاسلام . فإن تاب

توبه نصوحاً قبل قرب الأجل ، التحق بمن لم يرتكب . لأن النائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المغسول كالذى لم يتوضح أصلاً .

وإن مات قبل التوبة ، فهذا أمر مخطر عند الموت ، إذ ربما يكون موته على الإصرار سبيلاً لترزلزل إيمانه ، فيختم لهسوء الخاتمة ، لا سيما إذا كان إيمانه تقليدياً ، فإن التقليد وإن كان جزماً فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال . والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة .. كلامها إن ماتا على الإيمان يعذبان ، إلا أن يعفو الله ، عذاباً على عذاب المناقشة في الحساب . وتكون كثرة العقاب من حيث المدة ، بحسب كثرة مدة الإصرار . ومن حيث الشدة ، بحسب قبح الكبائر ومن حيث اختلاف النوع ، بحسب اختلاف أصناف السيئات . وعند انقضاء مدة العذاب ، ينزل البليه المقلدون في درجات أصحاب اليدين ، والعارفون المستبصرون في أعلى علرين . ففي الخبر^(٩٧) « آخرُ من يخرجُ من النار يعطي مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف » فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام كأن يقابل فرسخ بفرسخين ، أو عشرة بعشرين ، فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال . بل هذا بقول القائل : أخذ منه جملأ وأعطاه عشرة أمثاله ، وكان الجمل يساوى عشرة دنانير ، فأعطاه مائة دينار . فإن لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن والثقل ، فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة الميزان ، والجمل في الكفة الأخرى ، عشر عشيرة . بل هو موازنة معانى الأجسام وأرواحها ، دون أشخاصها وهياكلها ، فإن الجمل لا يقصد لثقله ، وطوله وعرضه ، ومساحته ، بل لاليته . فروحه المالية ، وجسمه اللحم والدم ، ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية ، لا بالموازنة الجسمانية . وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب أو الفضة . بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال ، وقيمتها مائة دينار ، وقال أعطيته عشرة أمثاله كان صادقاً . ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون . فإن روح الجوهرية لا تدرك بمجرد البصر ، بل بفطنة أخرى وراء البصر . فلذلك يكذب به

(٩٧) حديث إن آخر من يخرج من النار يعطي مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف : متفق عليه من حديث ابن مسعود .

الصبي ، بل القرى والبلدي ، ويقول ما هذه الجوهرة إلا حجر وزنه متقارن وزن الجمل ألف ألف مثقال ، فقد كذب في قوله إنني أعطيته عشرة أمثاله والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن يتضرر به البلوغ والكمال ، وأن يحصل في قلبه النور الذي يدرك به أرواح الجواد وسائر الأموال ، فعند ذلك ينكشف له الصدق . والعارف عاجز عن تفهم المقلد القاصر صدق رسول الله ﷺ في هذه الموازنة إذ يقول عليه السلام (٩٨) «**الْجَحَّةُ فِي السَّمَوَاتِ**» كما ورد في الأخبار ، والسموات من الدنيا ، فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا ! وهذا كما يعجز البالغ عن تفهم الصبي تلك الموازنة . وكذلك تفهم البدوى .

وكما أن الجوهرى مرحوم إذا بلى بالبدوى والقرى في تفهم تلك الموازنة ، فالعارف مرحوم إذا بلى بالبلدى الأبلة في تفهم هذه الموازنة . ولذلك قال عليه السلام (٩٩) «**اْرْحَمُوا ثَلَاثَةَ عَالَمًا بَيْنَ الْجَهَالِ وَغَنِّيَ قَوْمٌ افْتَقَرَ وَعَزِيزٌ قَوْمٌ ذَلٌّ**» والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ، ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم ، وامتحان ، وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلى ، وهو المعنى بقوله عليه السلام (١٠٠) «**الْبَلَاءُ مُؤَكَّلٌ بِالْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْأَمْمَلُ فَالْأَمْمَلُ**» .

فلا تظنن أن البلاء بلاء أىوب عليه السلام ، وهو الذى ينزل بالبدن ، فإن بلاء نوح عليه السلام أيضاً من البلاء العظيم ، إذ بلى بجماعة كان لا يزيدتهم دعاؤه إلى الله إلا فراراً ، ولذلك لما تأذى رسول الله ﷺ بكلام بعض الناس

(٩٨) حديث كون الجنـة في السـموات : خـ من حـديث أـبي هـرـيرة فـ أثناء حـديث فـي إـذا سـأـلـتم الله فـسائلـوه الفـردـوس فإـنه أـوسط الجنـة وأـعلى الجنـة وفـوقة عـرش الرحمن .

(٩٩) حـديث اـرـحـوا ثـلـاثـة عـالـمـا بـيـنـ الـجـهـالـ .ـ الحـديث : اـبـنـ جـهـانـ فـي الـضـعـفـاءـ مـنـ روـاـيـة عـيسـىـ بنـ طـهـمانـ عـنـ أـنـسـ وـعـيسـىـ ضـعـيفـ وـرـوـاهـ فـيـهـ مـنـ حـديثـ اـبـنـ عـبـاسـ إـلاـ أـنـهـ قـالـ عـالـمـ تـلـاعـبـ بـهـ الصـيـانـ وـفـيهـ أـبـوـ الـبـحـرـىـ وـاسـهـ وـهـبـ بـنـ وـهـبـ أـحـدـ الـكـذـائـينـ .ـ

(١٠٠) حـديث الـبـلـاءـ موـكـلـ بـالـأـنـبـيـاءـ ثـمـ الـأـولـيـاءـ ثـمـ الـأـمـمـلـ : التـرمـذـيـ وـصـحـحـهـ النـسـائـ فـيـ الـكـبـرىـ وـابـنـ مـاـحـىـ مـنـ حـديثـ سـعـدـ بـنـ أـبـىـ وـقـاصـ وـقـالـ قـلـتـ يـاـ رـسـولـ اللهـ أـبـىـ النـاسـ أـشـدـ الـبـلـاءـ فـذـكـرـهـ دونـ ذـكـرـ الـأـبـلـةـ ،ـ وـلـتـضـرـانـىـ مـنـ حـديثـ فـاطـمـةـ أـشـدـ النـاسـ الـبـلـاءـ الـأـنـبـيـاءـ ثـمـ الـصـالـحـونـ .ـ الحـديثـ

قال^(١٠١) «رَحِمَ اللَّهُ أخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِي بِأكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ» فإذاً لا تخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاحدين ، ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين . ولذلك قَلَّمَا ذَكَرَ الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع البلاء ، بالإخراج من البلاد ، وسعوا بهم إلى السلاطين ، والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين . وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين ، كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين .

فإذا عرفت هذه الدقائق ، فامن بقوله عليه السلام إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات ، وإياك أن تقتصر . بتصديقك على ما يدركه كالبصر والحواس فقط ، ف تكون حماراً بِرِجْلَيْنِ ، لأن الحمار يشارك في الحواس الخمس ، وإنما أنت مفارق للحمار بسر إلهي ، عرض على السموات ، والأرض ، والجبال ، فأبين أن يحملته وأشفقن منه ، فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس ، لا يصادف إلا في عالم ذلك السر الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم . فمن ذهل عن ذلك ، وعطله وأهمله ، وقع بدرجة البهائم ، ولم يجاور الحسوسات فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها ، ونسياها بالإعراض عنها ، فلا تكونوا كالذين نسوا الله ، فأنساهم أنفسهم : فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسى الله إذ ليس ذات الله مدركاً في هذا العالم بالحواس الخمس . وكل من نسى الله أنساه الله لا محالة نفسه ، ونزل إلى تبة البهائم ، وترك الترق إلى الأفق الأعلى ، وphan في الأمانة التي أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافراً لأنعمه ومعرضًا لنقمته . إلا أنه أسوأ حالاً من البهيمة ، فإن البهيمة تتخلص بالموت وأما هذا فعنه أمانه سترجع لا محالة إلى مودعها ، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها : وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة ، وإنما هبطت إلى هذا القالب الفاني وغرت فيه ، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها . وتعود إلى بارئها وخالقها ، إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة . والزاهرة المشرقة غير ممحوبة عن حضرة الربوبية ، والمظلمة أيضاً راجعة إلى الحضرة ، إذ المرجع

(١٠١) حديث رحم الله أخي موسى لقد أُوذى بأكثر من هذا فصر : البخاري من حديث ابن مسعود .

والمصير للكل إليه ، إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى علية إلى جهة أسفل سافلين . ولذلك قال تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾^(١٠٢) فبين أنهم عند ربهم إلا أنهم مذكوسون ، قد انقلبت وجوههم إلى أقصيائهم وانتكست رءوسهم عن جهة فرق إلى جهة أسفل ، وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ، ولم يهده طريقه ، فنعود بالله من الضلال ، والنزول إلى منازل الجهال .

فهذا حكم انقسام من يخرج من النار ، ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر . ولا يخرج من النار إلا موحد . ولست أعني بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله ، فإن اللسان من عالم الملك والشهادة ، فلا ينفع إلا في عالم الملك ، فيدفع السيف عن رقبته ، وأيدي الغانمين عن ماله . ومدة الرقبة والمآل مدة الحياة . فحيث لا تبعي ربها ولا مالها ، لا ينفع القول باللسان . وإنما ينفع الصدق في التوحيد . وكما التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله وعلامته أن لا يغصب على أحد من الخلق بما يجري عليه ، إذ لا يرى الوسائل ، وإنما يرى سبب الأسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكيل . وهذا التوحيد متفاوت . فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ، ومنهم من له مثقال ، ومنهم من له مقدار خردلة وذرة . فمن في قلبه مثقال دينار من إيمان ، فهو أول من يخرج من النار . وفي الخبر يقال^(١٠٣) « أُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مَثَقَالٌ دِينَارٌ مِنْ إِيمَانٍ » . وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان . وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة . والموازنة بالمثلث والذرة على سبيل ضرب المثل ، كما ذكرنا في الموازنة بين أعیان الأموال وبين النقود . وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد . فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك . فأما بقية السمات فيتسارع العفو والتکفير إليها . ففي الأثر أن العبد ليوقف بين يدي الله تعالى ، وله من الحسنات أمثال الجبال ، لو سلمت له لكان من أهل الجنة ، فيقوم أصحاب المظالم ، فيكون قد سب عرض

(١٠٢) السجدة : ١٢

(١٠٣) حديث أخرجوها من النار في قلبه مثقال دينار من إيمان — الحبيب تقدم

هذا ، وأخذ مال هذا ، وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة ، فتقول الملائكة : يا ربنا هذا قد فنيت حسناته ، وبقى طالبون كثير . فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتكم على سيئاته ، وصكوا له صكًا إلى النار .

وكان يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص ، فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم ، إذ ينقل إليه عوضاً عما ظلم به . وقد حكى عن ابن الجلاء ، أن بعض إخوانه اغتابه ، ثم أرسل إليه يستحله ، فقال : لا أفعل ليس في صحيحتي حسنة أفضل منها ، فكيف أمحوها ؟ وقال هو وغيره : ذنوب إخوان من حسناتي ، أريد أن أزين بها صحيفتي .

فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في المعاد في درجات السعادة • والشقاوة . وكل ذلك حكم بظاهر أسباب ، يضاهي حكم الطيب على مريض بأنه يموت لامعالة ولا يقبل العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين . فإن ذلك ظن يصيب في أكثر الأحوال . ولكن قد تتفق إلى المشرف على الهملاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب ، وقد يساق إلى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه . وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء ، وغموض الأسباب التي رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم . إذ ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها ، فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفية ، ليس في قوة البشر الإطلاع عليها . يعبر عن ذلك السبب الخفي المفضي إلى النجاة بالغفو والرضا ، وعما يفضي إلى الهملاك بالغضب والانتقام . ووراء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية ، التي لا يطلع الخلق عليها . فلذلك يجب علينا أن نجُوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة ، والغضب على المطبع وإن كثرت طاعاته الظاهرة . فإن الاعتماد على التقوى ، والتقوى في القلب ، وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه ، فكيف غيره ! ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عذر عن عبد إلا بسبب خفي فيه يقتضي العفو ، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضي البعد عن الله تعالى . ولو لا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف ، ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلاً ، ولو لم يكن عدلاً لم يصح قوله تعالى ﴿وَمَا زَرْتَ بِظَلَامٍ﴾

لِلْعَبِيدِ ﴿١٠٤﴾ ولا قوله تعالى **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** ﴿١٠٥﴾ وكل ذلك صحيح ، فليس للإنسان إلا ما سعى وسعيه هو الذي يرى . وكل نفس بما كسبت رهينة . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم . ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم ، تحقيقاً لقوله تعالى **إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّنُ مَا يَقُولُ حَتَّى يُغَيِّرُ مَا يَأْنَسُهُمْ** ﴿١٠٦﴾ .

وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أوضح من المشاهدة بالبصر إذ البصر يمكن الغلط فيه ، إذ يرى بعيداً ، والكبير صغيراً . ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها ، وإنما الشأن في افتتاح بصيرة القلب ، وإلا فما يرى بها بعد الافتتاح فلا يتصور فيه الكذب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى **مَا كَذَبَ الْفُرَادُ مَارَأَى** ﴿١٠٧﴾

الناجون

الرتبة الثالثة : رتبة الناجين . وأعني بالنجاة السلامية فقط ، دون السعادة والفوز . وهم قوم لم يخدموه فيخلع عليهم ، ولم يقتصرؤه فيعذبوه . ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار ، والمعتوهين ، والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد ، وعاشوا على البلة وعدم المعرفة ، فلم يكن لهم معرفة ، ولا جحود ، ولا طاعة ، ولا معصية ، فلا وسيلة تقربيهم ، ولا جنابة تبعدهم ، فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار ، بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ، ومقام بين المقامين ، عبر الشرع عنه بالأعراف ﴿١٠٨﴾ وحلول طائفة

(١٠٤) فصلت : ٤٦ (١٠٥) النساء : ٤٠ (١٠٦) المرعد : ١١ (١٠٧) التجم : ١١

(١٠٨) حديث حلول طائفة من الملائكة الأعراف : الزار من حديث أبي سعيد الخدري سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أصحاب الأعراف فقال لهم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعهم المعصية أن يدخلوا الجنة وهم على سور بين الجنة والنار — الحديث : وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ورواه الض sezاني من رواية أبي معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن المدني عن أبيه مختصرأ أبو معشر نجيح السندي ضعيف ويحيى بن شبل لا يعرف والحاكم عن حذيفة قال أصحاب الأعراف قوم تجاورت بهم حسانتهم النار وقصرت سيئاتهم عن الجنة — الحديث : وقال صحيح على شرط الشعرين وروى الشعري عن ابن عباس قال الأعراف موضع عال في الصراط عليه العاس وجنة وعلى وحفر — الحديث : هذا كذب موضوع وفيه حمامة من الكاذبين .

من الخلق فيه معلوم يقيناً من الآيات والأخبار ، ومن أنوار الاعتبار . فاما الحكم على العين ، كالحكم مثلاً بأن الصبيان منهم ، فهذا مظنون وليس بمستيقن والاطلاع عليه تحقيقاً في عالم النبوة ، ويعود أن ترتفى إليه رتبة الأولياء والعلماء ، والأخبار في حق الصبيان أيضاً متعارضة ، حتى قالت عائشة رضي الله عنها^(١٠٩) لما مات بعض الصبيان : عصفور من عصافير الجنة ، فأنكر ذلك رسول الله ﷺ وقال « وَمَا يُدْرِيك ؟ » فإذا الأشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام .

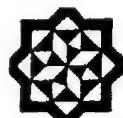
الرتبة الرابعة : رتبة الفائزين . وهم العارفون دون المقلدين . وهم المقربون السابقون . فإن المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة ، فهو من أصحاب العين . وهؤلاء هم المقربون . وما يلقى هؤلاء يتجاوز حد البيان . والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن ، فليس بعد بيان الله بيان والذى لا يمكن

(١٠٩) حديث عائشة أنها قالت لما مات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك وقال ما يدرك رواه مسلم قال المصنف والأخبار في حق الصبيان متعارضة - قلت روى البخاري من حديث يبرة بن جندب في رؤيا النبي ﷺ وفيه وأما إلى الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة فقيل يا رسول الله وأولاد المشركين قال وأولاد المشركين وللطيراني من حديثه سأله رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال لهم خدمة أهل الجنة وفيه عاد بن منصور الناجي قاضي البصرة وهو ضعيف بروايه عن عيسى بن شعيب وقد ضعفه ابن حبان وللنمساني من حديث الأسود بن سريع كنافي غزارة لنا - الحديث : في قتل الذرية وفيه ألا أن خياركم أنا المشركين ثم قال لا تقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة - الحديث : واسناده صحيح وفي الصحوحين من حديث أبي هريرة كل مولود يولد على الفطرة - الحديث : وفي رواية لأحمد ليس مولود يولد الأعلى هذه الملة ولأبي داود في آخر الحديث قيلوا يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وفي الصحيحين من حديث ابن عباس سئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطيراني من حديث ثابت بن الحارث الأنصاري كانت يهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا هو صديق فقال النبي ﷺ كذبت يهود ما من نسمة يخلفها الله في بطن أمها إلا أنه شقي أو سعيد - الحديث : وفيه عبد الله بن هميزة ولأبي داود من حديث ابن مسعود الوائدة والمؤودة في النار قوله من حديث عائشة قلت يا رسول الله ذراري المؤمنين فقال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فذراري المشركين قال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطيراني من حديث خديجة قلت يا رسول الله أين أطفالك منك قال في الجنة قلت بلا عمل قال الله بما كانوا عاملين قلت فأين أطفالك قبلك قال في النار قلت بلا عمل قال لقد علم الله ما كانوا عاملين وإسناده منقطع بين عبد الله ابن الحارث وخدبيحة وفي الصحيحين من حديث الصعب بن حثامة في أولاد المشركين هم من آبائهم وفي رواية هم منهم .

التعبير عنه في هذا العالم . فهو الذي أجمله قوله تعالى ﴿فَلَا يَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِي لَهُمْ مِنْ قُرْبَةِ أَغْيَنِ﴾^(١٠) وقوله عز وجل : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . والعارفون مطلوبهم تلك الحالة التي لا يتصور أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم . وأما الحور ، والقصور ، والفاكهة واللبن ، والعسل والخمر ، والخل والأساور ، فإنهم لا يحرصون عليها ، ولو أعطوهها لم يقنعوا بها . ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم ، فهى غاية السعادات ، ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها : كيف رغبت في الجنة ؟ فقالت الجار ثم الدار . فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزيتها ، بل عن كل شيء سواه ، حتى عن أنفسهم . ومثلهم مثال العاشق المستهتر بعشوقه ، المستوف همه بالنظر إلى وجهه والتفكير فيه ، فإنه في حال الاستغراق غافل عن نفسه ، لا يحس بما يصيبه

في بدنـه ويعبر عن هذه الحالة بأنه فني عن نفسه . ومعناه أنه صار مستغرقاً بغيره ، وصارت همومه هما واحداً وهو محبوـبه ، ولم يـقـ فيـه متـسع لـغـير مـحـبـوـبـه حتى يـلـفـتـ إـلـيـهـ ، لا لـنـفـسـهـ وـلـأـغـيرـ نـفـسـهـ . وـهـذـهـ الـحـالـةـ هـىـ التـىـ توـصلـ فـىـ الـآـخـرـةـ إـلـىـ قـرـةـ عـيـنـ لاـ يـتـصـورـ أـنـ تـخـطـرـ فـىـ هـذـاـ عـالـمـ عـلـىـ قـلـبـ بـشـرـ ، كـاـنـ لـأـنـ يـتـصـورـ أـنـ تـخـطـرـ صـورـةـ الـأـلـوـانـ وـالـأـلـحـانـ عـلـىـ قـلـبـ الـأـصـمـ وـالـأـكـمـ ، إـلـاـ أـنـ يـرـفـعـ الـحـجـابـ عـنـ سـمـعـهـ وـبـصـرـهـ فـعـنـدـ ذـلـكـ يـدـرـكـ حـالـهـ ، وـيـعـلـمـ قـطـعاـ أـنـهـ لـمـ يـتـصـورـ أـنـ تـخـطـرـ بـيـالـهـ قـبـلـ ذـلـكـ صـورـتـهـ ، فـالـدـنـيـاـ حـجـابـ عـلـىـ التـحـقـيقـ ، وـبـرـفـعـهـ يـنـكـشـفـ الـغـطـاءـ ، فـعـنـدـ ذـلـكـ يـدـرـكـ ذـوقـ الـحـيـاةـ الـطـيـبـةـ ، وـأـنـ الدـارـ الـآـخـرـةـ لـهـ الـحـيـوانـ لـوـ كـانـواـ يـعـلـمـونـ .

فـهـذـاـ الـقـدـرـ كـافـ فـيـ بـيـانـ تـوزـعـ الـدـرـجـاتـ عـلـىـ الـحـسـنـاتـ ، وـالـلـهـ الـمـوـقـعـ بـلـطـفـهـ .





الفصل الرابع بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب : منها الإصرار والمواظبة . ولذلك قيل لا صغيرة مع إصرار ، ولا كبيرة مع استغفار . فكبيرة واحدة تنصرم^(١١١) ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك ، كان العفو عنها أرجى من صغيرة يوازن العبد عليها . ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر . ولذلك قال رسول الله عليه السلام^(١١٢) « خير الأعمال أدومها وإن قل » والأشياء تستبان بأضدادها . وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل ، فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره ، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إطلاع القلب .

إلا أن الكبيرة قلما يتصور المحجم عليها بعنة من غير سوابق ولو احتج من جملة الصغائر فقلما يزني الزائى بعنة من غير مراودة ومقدمات . وقلما يقتل بعنة من غير مشاهدة سابقة ومعاداة . فكل - كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولا حقة . ولو تصورت كبيرة وحدها بعنة ، ولم يتفق إليها عود ، ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره .

(١١١) تنصرم : تقطع .

(١١٢) حديث خير الأعمال أدومها وإن قل : متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحب وقد تقدم ..

استصغار الذنب

ومنها أن يستصغر الذنب . فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظماته يصدر عن نفور القلب عنه ، وكراهيته له . وذلك التفorum يمنع من شدة أثره به واستصغار يصدر عن الألف به ، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والخذور تسويفه بالسيئات . ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة ، فإن القلب لا يتأثر بما يجري في الغفلة . وقد جاء في الخبر^(١١٣) « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والمنافق يرى ذنبه كدبار مرا على أثفيه فأطاره » .

وقال بعضهم : الذنب الذي لا يغفر ، قول العبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا . وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله . فإذا نظر إلى عظم من عصى به ، رأى الصغيرة كبيرة . وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه . لا تنظر إلى قلة المهدية ؛ وانظر إلى عظم مهديها . ولا تنظر إلى صغر الخطيبة ، وانظر إلى كبراء من واجهته بها . وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين . لا صغيرة ، بل كل مخالفة فهي كبيرة وكذلك قال بعض الصحابة رضي الله عنهم للتابعين . وإنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر ، كما نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات . إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم ، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر . وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ، ويتجاوز عن العامي في أمور لا يتتجاوز في أمثالها عن العارف لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف .

(١١٣) حديث المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه — الحديث : البخاري من روایة الحارث بن سوید قال حدتنا وحدثنا الله أفرح بتوبة العبد ولم يبن المرفوع من الموقف وقد رواه البهقی في الشعب من هذا الوجه موقعاً ومرفوعاً .

السرور بالصغيرة

ومنها السرور بالصغيرة ، والفرح والتبرج^(١١٤) . واعتداد التمكّن من ذلك نعمة . والغفلة عن كونه سبب الشقاوة . فكلما غلت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويده قلبه . حتى أن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به ، لشده فرحة مقارفته^(١١٥) إيه . كما يقول . أمارأيتنى كيف مزقت عرضه ؟ ويقول المناظر في مناظره أمارأيتنى كيف فضحته ؟ وكيف ذكرت مساوئه حتى أخجلته ؟ وكيف استخففت به ؟ وكيف لبست عليه ؟ ويقول المعامل في التجارة : أمارأيتنى كيف روجت عليه الزائف ؟ وكيف خدعته ؟ وكيف غبت عنه في ماله ؟ وكيف استحمقته ؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر ، فإن الذنوب مهلكات ، وإذا دفع العبد إليها ، وظفر الشيطان به في الحمل عليها ، فينبغي أن يكون في مصيبية وتأسف بسبب غلبة العدو عليه ، وبسبب بعده من الله تعالى . فالمريض الذي يفرح بأن ينكسر إناؤه الذي فيه دواؤه ، حتى يتخلص من ألم شربه ، لا يرجى شفاءه .

التهاون بستر الله وحلمه

ومنها أن يتهاون بستر الله عليه ، وحلمه عنه ، وإمهاله إيه ، ولا يدرى أنه إنما يسهل مقناً ليزداد بالإمفال إثماً . فيظن أن تمكّنه من المعاصي عناية من الله تعالى به . فيكون ذلك لأمنه من مكر الله ، وجهله بمكامن الغرور بالله ، كما قال تعالى ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلُوْنَهَا فَيُنَسِّ الْمَصِيرُ﴾^(١١٦) .

(١١٤) التبرج : الفخر .

(١١٥) مقارفته الذنوب : مجازتها وارتكابها .

(١١٦) المجادلة : ٨

إعلان الذنب

ومنها أن يأتى الذنب ويظهره ، بأن يذكره بعد إتيانه . أو يأتيه في مشهد غيره . فإن ذلك جنابة منه على ستر الله الذى سدله^(١١٧) عليه ، وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه ، أو أشهده فعله . فهما جنابتان انضمتا إلى جنابته ، فغلطت به ، فإن انصاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه ، وتهيئة الأسباب له ، صارت جنابة رابعة ، وتفاحش الأمر . وفي الخبر^(١١٨) « كُلُّ النَّاسِ مُعَافَىٰ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ تَبَيَّثُ أَخْدُوهُمْ عَلَى ذَنْبٍ قَدْ سَتَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيُضْبَحُ فَيُكَشِّفُ سِرَّ اللَّهِ وَيَتَحَدَّثُ بِذَنْبِهِ » وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ، ولا يهتك الستر . فإلا ظهار كفران هذه النعمة . وقال بغضهم : لا تذنب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين . ولذلك قال تعالى ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَغْرُوفِ﴾^(١١٩) وقال بعض السلف : ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ، ثم يهونها عليه .

ومنها أن يكون المذنب عالماً يقتلى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبير ذنبه كلبس العالم الإبريم ، وركوبه مراكب الذهب ، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين ، ودخوله على السلاطين ، وترددده عليهم ، ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم ، وإطلاق اللسان في الأعراض وتعديه باللسان في المناظرة ، وقصده الاستخفاف ، واستغفاله من العلوم بمالا يقصد منه إلا الجاه ، كعلم الجدل والمناظرة ، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها ، فيموت العالم ويبقى شره

(١١٧) سدل الستر عليه : أرجاه وأرسله .

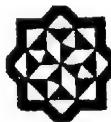
(١١٨) حديث كل الناس مغافل إلا المحاهرين — الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ كل أمنى وقد تقدم ..

والمحاهرون : بالمعلنون للمعصية .

(١١٩) التوبة : ٦٧ .

مستطيراً في العالم آمادا متطاولة . فطوفى لمن إذا مات مات ذنبه معه . وفي الخبر^(١٢٠) « من سن سنّة سيئة، فعلّيه وزرها ووزر من عمل بها لا ينفع من أوزارهم شيئاً » قال تعالى ﴿ وَنَكِبْ مَا قَدُّمُوا وَآثَارَهُم ﴾^(١٢١) والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انتهاء العمل والعامل .

وقال ابن عباس : ويل للعالم من الأتباع ، يزل زلة فيرجع عنها ، ويحملها الناس فيذهبون بها في الأفق . وقال بعضهم . مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها . وفي الإسرائيлик أن عالماً كان . يضل الناس بالبدعة ، ثم أدركته توبة ، فعمل في الإصلاح دهراً . فأوحى الله تعالى إلى نبيهم . قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك ولكن كيف من أضللت من عبادي فأدخلتهم النار ؟ ففيه يتضح أن أمر العلماء خطر ، فعلىهم وظيفتان إحداهما : ترك الذنب ، والأخرى إخفاؤه . وكما تتضاعف أوزارهم على الذنب ، فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبوا . فترك التجمل والميل إلى الدنيا ، وقع منها بيسير ومن الطعام بالقوت ، ومن الكسوة بالخلق ، فيتبع عليه ويقتدى به العلماء والعوام ، فيكون له مثل ثوابهم وإن مال إلى التجمل ، مالت طباع من دونه إلى التشبه به ، ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين ، وجمع الخطايا من الحرام . ويكون هو السبب في جميع ذلك . فحرّكت العلماء في طورى الزيادة والقصاص تتضاعف آثارها ، إما بالربع ، وإما بالخسران : وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنب التي التوبة توبّعها .



(١٢٠) حديث من سن سنّة سيئة فعلّيه وزرها ووزر من عمل بها — الحديث : مسلم من حديث جريرا ابن عبد الله وقد تقدم في أداب الكسب .

(١٢١) بس : ١٢١

الرَّكْنُ الثَّالِثُ

فِي قَامِ التَّوْبَةِ وَشُرُوطِهَا وَدَوَامِهَا إِلَى آخِرِ الْعُمَرِ

- بيان شروط التوبة ودوامها .
- بيان كيفية تدارك ما مضى من المظالم .
- بيان طريق كل تائب في رد المظالم .
- بيان أقسام التائبين في دوام التوبة .
- بيان ما ينبغي أن يمتنع عليه التائب إن جرى عليه ذنب : إما عن قصد وشهوة غالبة ، أو عن إلمام بحكم الاتفاق .
- ثمرة التوبة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الأول

بيان شروط التوبة ودوامها

تهيد :

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عنندم يورث عزماً وقصدأ . وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصى حائلاً بينه وبين محبوبه . ولكل واحد من . العلم . والندم . والعزם دوام وقام . وتمامها علامه ، ولدوامها شروط . فلا بد من بيانها .

أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي . وأما الندم : فهو توجع القلب عند شعوره بفوats المحبوب وعلامته طول الحسرة ، والحزن ، وانسكاب الدمع ، وطول البكاء والفكير . فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته ، طال عليه مصبيته وبكاؤه . وأى عزيز أعز عليه من نفسه ، وأى عقوبة أشد من النار ، وأى شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصى وأى مخبر أصدق من الله ورسوله ! ولو حدثه إنسان واحد يسمى طيباً ، أن مرض ولده المريض لا يرآ ، وأنه سيموت منه ؛ لطال في الحال حزنه . فليس ولده بأعز من نفسه ، ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ، ولا الموت أشد من النار ، ولا المرض بأدل على الموت من المعاصى على سخط الله تعالى ، والتعرض لها للنار . فالمسلم كلما كان أشد كان تكفه الذنب به أرجى . فعلامة صحة

الندم رقة القلب ، وغزاره الدمع . وفي الخبر^(١٢٢) « جَالِسُوا التَّوَابِينَ فَإِنَّهُمْ أَرْقَ أَفْتَدَةً » .

ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلاً عن حلاوتها ، فيستدل بالليل كراهية ، وبالرغبة نفرة . وفي الاسرائيليات أن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه ، وقد سأله قبول توبة عبد ، بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم ير قبول توبته فقال : وعزتي وجلالي ، لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته ، وحده ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه . فإن قلت فالذنوب هي أعمال مشتهاة بالطبع ، فكيف يجد مرارتها .

فأقول : من تناول عسلًا كان فيه سم ، ولم يدركه بالذوق ، واستلذه ، ثم مرض وطال مرضه والمه ، وتناثر شعره ، وفلجت أعضاؤه^(١٢٣) ، فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم ، وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاؤة ، فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟ فإن قلت لا ، فهو جحد للمشاهدة والضرورة . بل ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم أيضاً ، لشبهه به : فوجد أن التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل ، وعمله عمل السم . ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بهثل هذا الإيمان . ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائدون فلا ترى إلا معرضًا عن الله تعالى ، متهاوناً بالذنوب ، مصرًا عليها . فهذا شرط تمام الندم . ويبيني أن يدوم إلى الموت . ويبيني أن يجد هذه المزيارة في جميع الذنوب ، وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل ، كما يجد متناول السم في العسل اللفة من الماء البارد ، مهما علم أن فيه مثل ذلك السم ، إذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنا ، بل من حيث إنه خالفة أمر الله تعالى ، وذلك جار في كل ذنب .

(١٢٢) حديث جالسو التوابين فايهم أرق أفتدة : لم أجده مرفوعاً وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبي الدنيا في التوبة قال جالسو التوابين فإن رحمة الله إلى النادم أقرب وقال أيضاً فلموعظة إلى قوله أسرع وهم إلى الرقة أقرب وقال أيضاً التائب أسرع دمعة وأرق قلياً .

(١٢٣) أصابها الفالج وهو داء يحدث في أحد شقى البدن فيبطل إحساسه وحركته (الملاي المصادر) .

الفصل الثاني

بيان كيفية تدارك ما فات

وأما القصد الذي ينبعث منه ، وهو إرادة التدارك ، فله تعلق بالحال ، وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له ، وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضي ، وهو تدارك ما فرط . وبالمستقبل ، وهو دوام الطاعة ، ودوام ترك المعصية إلى الموت . وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضي ، أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ، ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة ، وشهرأً شهراً ، ويوماً يوماً ، ونفساً نفساً . وينظر إلى الطاعات ما الذي قصر فيه منها ، وإلى المعاصي ما الذي قارفه منها .

كيفية التوبة من ترك الصلاة أو فسادها

إإن كان قد ترك صلاة ، أو صلاها في ثوب نجس ، أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية . فيقتضيها عن آخرها . فإن شك في عدد ما فاته . منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه ، ويقضي الباق . ولو أن يأخذ فيه بغالب الظن ، ويصل إليه على سبيل التحرى والاجتihad .

التوبة من ترك الصوم

وأما الصوم ، فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه ، أو أفتر عمدًا ، أو نسي النية بالليل ولم يقض ، فيتعذر جموع ذلك بالتحرى والاجتihad ، ويشغله بقضاءه .

التوبة من ترك الزكاة

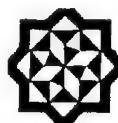
وأما الزكاة ؛ فيحسب جميع ماله ، وعدد السنين من أول ملوكه لا من زمان البلوغ ، فإن الزكاة واجبة في مال الصبي : فيؤدي ما عالم بغالب الظن أنه في ذمته . إن أداه لا على وجه يوافق مذهبـه ، بأن لم يصرف إلى الأصناف الثانية ، أو أخرج البديل وهو على مذهب الشافعـي رحـمه الله تعالى ، فيقضـى جميع ذلك ، فإن ذلك لا يجزـيه أصلـاً وحسابـ الزكـاة ومعرفـة ذلك يطول . ويحتاجـ فيه إلى تأملـ شافـ ويلزـمه أن يـسأـلـ عن كـيفـيـةـ الخـروـجـ عنهـ منـ العـلـماءـ .

التوبة من ترك الحج

وأما الحجـ ، فإنـ كانـ قدـ استطـاعـ فيـ بعضـ السنـينـ ولمـ يـتفـقـ لهـ الخـروـجـ ، وـالآنـ قدـ أـفـلـسـ فـعلـيـهـ الخـروـجـ . فإنـ لمـ يـقدـرـ معـ الإـفـلاـسـ ، فـعلـيـهـ أـنـ يـكتـسبـ منـ الـحـلـالـ قـدرـ الرـادـ . فإنـ لمـ يـكـنـ لـهـ كـسـبـ وـلـامـالـ ، فـعلـيـهـ أـنـ يـسـأـلـ النـاسـ ليـصـرـفـ إـلـيـهـ منـ الزـكـاةـ أوـ الصـدـقـاتـ ماـ يـجـعـ بهـ ، فإنـهـ إـنـ مـاتـ قـبـلـ الحـجـ مـاتـ عـاصـيـاـ . قالـ عـلـيـهـ السـلـامـ^(١٢٤) «مـنـ مـاتـ وـلـمـ يـجـعـ فـلـيـمـثـ إـنـ شـاءـ يـهـودـيـاـ وـإـنـ شـاءـ نـصـرـانـيـاـ» وـالـعـجـزـ الطـارـئـ بـعـدـ الـقـدـرـةـ لاـ يـسـقطـ عـنـهـ الحـجـ فـهـذـا طـرـيقـ تـقـيـشـهـ عـنـ الطـاعـاتـ وـتـدارـكـهاـ .

التوبة من المعاصي

وـأـمـاـ المـعـاصـيـ ، فـيـجـبـ أـنـ يـفـتـشـ مـنـ أـوـلـ بـلوـغـهـ عـنـ سـعـهـ ، وـبـصـرـهـ وـلـسانـهـ ، وـبـطـنهـ ، وـيـدـهـ ، وـرـجـلـهـ ، وـفـرـجـهـ ، وـسـائـرـ جـوارـحـهـ ثـمـ يـنـظـرـ فـيـ جـمـيعـ أـيـامـهـ وـسـاعـاتـهـ ، وـيـفـصـلـ عـنـ نـفـسـهـ دـيـوـانـ مـعـاصـيـهـ ، حـتـىـ يـطـلـعـ عـلـىـ جـمـيعـهـ صـغـائـرـهـ وـكـبـائـرـهـ ، ثـمـ يـنـظـرـ فـيـهـ .



^(١٢٤) حـدـيـثـ مـنـ مـاتـ وـلـمـ يـجـعـ فـلـيـمـثـ إـنـ شـاءـ يـهـودـيـاـ — الحـدـيـثـ : تـقـدـمـ فـيـ الحـجـ .



الفصل الثالث

بيان طريق كل تائب في رد المظالم

المعاصي التي بين العبد وبين الله

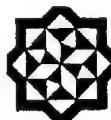
فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلّق بظلمة العباد ، كنظر إلى غير محرم ، وعود في مسجد مع الجنابة ، ومس مصحف بغرضه ، واعتقاد بدعة ، وشرب خمر وسماع ملاهٍ ، وغير ذلك ما لا يتعلّق بظلم العباد ، فالنوبة عنها بالندم والتحسر عليها ، وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدّة ، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناصها . فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات ، أخذًا من قوله ﷺ (١٢٥) « اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُ كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُّها » بل من قوله تعالى ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذَهِّبُنَّ السَّيِّئَاتِ﴾ (١٢٦) فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وب مجالس الذكر . ويُكفر القعود في المسجد جنبًا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة . ويُكفر من المصحّف محدثاً بإكرام المصحّف وكثرة قراءة القرآن منه ، وكثرة تقبيله ، وبأن يكتب مصحّفاً ويجعله وقفاً . ويُكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال ، وهو أطيب منه وأحب إليه . وعد جميع المعاصي غير ممكّن وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة . فإن المرض يعالج بضده . فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية ، فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تصيادها والمتضادات هي المتناسبات . فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تصيادها

(١٢٥) حديث أتني الله حيث كنت واتبع السيئة الحسنة تمحوها : الترمذى من حديث أبي ذر وصححه وتقدم أوله في ادب الكسب وبعده في أوائل التوبه وتقدم في رياضة النفس .

(١٢٦) هود : ١٤١ .

· فإن البياض يزال بالسود لا بالحرارة والبرودة . وهذا التدرج والتحقيق من التلطيف في طريق الحشو فالرجاء فيه أصدق ، والثقة به أكثر من أن يوازن على نوع واحد من العبادات ، وإن كان ذلك أيضاً مؤثراً في الحشو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . ويدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها . والمحب إلينا . فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له إذا القلب يتجاذب بالهموم والغموم عن دار الهموم . قال عليه السلام ^(١٢٧) « مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبٌ لَا يُكَفِّرُهَا إِلَّا الْهُمُومُ » وفي لفظ آخر « إِلَّا الْهُمُومُ يُطَلَّبُ الْمَعِيشَةُ » وفي حديث عائشة رضي الله عنها ^(١٢٨) « إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ أَعْمَالٌ يُكَفِّرُهَا أَذْخُلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الْهُمُومَ فَتَكُونُ كَفَارَةً لِذُنُوبِهِ » ويقال إن الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرفه . هو ظلمة الذنوب والهم بها . وشعور القلب بوقفة الحساب وهو المطلع . فإن قلت : هم الإنسان غالباً بماله وولده وجاهه ، وهو خطيئة ، فكيف يكون كفارة؟ .

فاعلم أن الحب له خطيئة ، والحرمان عنه كفارة . ولو تمعن به لتبين الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام ، دخل على يوسف عليه السلام في السجن ، فقال له : كيف تركت الشيخ الكثيب؟ فقال قد حزن عليك حزن مائة ثكلى . قال فماه عند الله؟ قال أجر مائة شهيد فإذا ذكر الهموم أيضاً مكفرات حقوق الله . فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى .



(١٢٧) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم وفي لفظ آخر إلا الهم في طلب المعيشة : طرس وأبو نعيم في الخلية والخطيب في الطبيخ من حديث أبي هريرة بسنده ضعيف وتقديم في النكاح .

(١٢٨) حديث إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الغموم : تقدم أيضاً في النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ انتلاه الله بالحزن .

مظالم العباد

وأما مظالم العباد ففيها أيضاً معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضاً . فما يتعلّق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر ، وترك مثله في المستقبل ، والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها . فيقابل إيداعه الناس بالإحسان إليهم ويُكفر غصب أموالهم بالتصدق بذلك الحلال ويُكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين ، وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله . ويُكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب لأن ذلك إحياء . إذاً العبد مفقود لنفسه ، موجود لسيده والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه ، في مقابل الإعدام بالإيجاد . وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع ، حيث كفر القتل بإعتاق رقبة . ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجيه ولم يكفه ، مالم يخرج عن مظالم العباد . ومظالم العباد إما في النفوس ، أو الأموال ، أو الأعراض ، أو القلوب أعني به الإيداع الحض . أما النفوس ، فإن جرى عليه قتل خطأ ، فتوبته بتسليم الديمة ووصولها إلى المستحق ، إما منه أو من عاقلته . وهو في عهده ذلك قبل الوصول . وإن كان عمداً موجباً للقصاص بالقصاص . فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولد الدم ، ويحكمه في روحه ، فإن شاء عفا عنه ، وإن شاء قتله ولا تسقط عهده إلا بهذا . ولا يجوز له الإخفاء . وليس هذا كما لو زنى ، أو شرب ، أو سرق ، أو قطع الطريق ، أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى ، فإنه لا يلزم في التوبة أن يفضح نفسه ، وبهتك ستره ويلتمس من الوالى استيفاء حق الله تعالى . بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ، ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجايدة والتعذيب . فالاعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من النائبين النادمين . فإن رفع أمر هذه إلى الوالى حتى أقام عليه الحد ، وقع موقعه ، وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله

تعالى ، بدليل ماروى^(١٢٩) أن ماعز بن مالك ، أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني قد ظلمت نفسي وزنت ، وإن أريد أن تطهري . فرده . فلما كان من الغد أتاه فقال : يا رسول الله إني قد زنت . فرده الثانية . فلما كان في الثالثة ، أمر به فحفر له حفرة ، ثم أمر به فرجم . فكان الناس فيه فريقين . فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطئته . وقائل يقول ما توبة أصدق من توبته . فقال رسول الله ﷺ « لَقَدْ ثَابَ تُوبَةً لَوْ قُسِّمَتْ بَيْنَ أُمَّةً لَوْ سِعْتُهُمْ »^(١٣٠) وجاءت العامدية فقالت يا رسول الله ، إني قد زنت فطهري . فردها . فلما كان من الغد قالت يا رسول الله ، لم تردني ؟ لعلك ت يريد أن ترددني كما رددت ماعزا . فوالله إني لخبي . فقال ﷺ « أَمَا الآن فَادْهِي حَتَّى تَضَعِّي » فلما ولدت أنت بالصبي في خرقه . فقالت هذا قد ولدته . قال « اذْهِبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطُمِيهِ » فلما فطمته أنت بالصبي وفي يده كسره خبز ، فقالت يا نبى الله ، قد فطمته : وقد أكل الطعام فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجوها . فأقبل خالد ابن الوليد بحجر ، فرمى رأسها ، فتنضح الدم على وجهه ، فسبها . فسمع رسول الله ﷺ سبه إياها فقال « مَهْلَأً يَأْخُالُهُ فَوَالَّذِي تَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ ثَابَ تُوبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغَفَرَ لَهُ » ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت .

وأما القصاص وحد القذف : فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه . وإن كان المتناول مالا تناوله بغضب ، أو خيانة ، أو غبن في معاملة بنوع تلبيس ، كترويج زائف ، أو ستر عيب من المبيع ، أو نقص أجراً أجير ، أو منع أجراً منه ، فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حد بلوغه ، بل من أول مدة وجوده . فإن ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراجه بعد البلوغ ، إن كان الرأي قد

(١٢٩) حديث اعتراف ماعز بالرثنا ورده بن أبي شيبة حتى اعترف أربعاء وقوله .لقد ثاب توبه — الحديث مسلم من حديث بربردة بن الحصبيب .
 (١٣٠) حديث العامدية واعترافها بالرثنا وترجمتها وقوله بن أبي شيبة لقد ثابت توبه — الحديث : مسلم من حديث بربردة وهو بعض الذي قبله .

قصر فيه ، فإن لم يفعل كان ظالماً مطالباً به ، إذ يستوى في الحقوق المالية الصبي والبالغ . وليحاسب نفسه على الحبات والدواائق من أول يوم حياته إلى يوم توبته . قبل أن يحاسب في القيامة . وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه . فإن حصل مجموع ما عليه بطن غالب ونوع من الاجتهد ممكناً ، فليكتبه ، وليكتب أسامي أصحاب المظالم واحداً واحداً ، وليطف في نواحي العالم وليطالبهم ، وليستحلهم ، أو ليؤد حقوthem . وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار ، فإنهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم ، ولا على طلب ورثتهم . ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه . فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات ، حتى تفيض عنه يوم القيمة ، فتوخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظلمه ، فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم ؛ فيهلك بسيئات غيره .

فهذا طريق كل تائب في رد المظالم . وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم . فكيف ذلك مما لا يعرف ، وربما يكون الأجل قريباً فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق ، أشد من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات . هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته . أما أمواله الحاضرة . فليرد إلى المالك ما يعرف له مالكاً معيناً . وما لا يعرف له مالكاً فعليه أن يتصدق به . فإن اخittelط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهد ، ويتصدق بذلك المدار كاسبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام . وأما الجنائية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوعهم أو يعييهم في الغيبة . فيطلب كل من تعرض له بلسانه ، أو آذى قلبه بفعل من أفعاله ، وليستحل واحداً واحداً منهم . ومن مات أو غاب فقد فات أمره ، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات ، لتوخذ منه عوضاً في القيمة . وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه ، فذلك كفارته . وعليه أن يعرفه قدر جنايته وتعرضه له . فالاستحلال المبهم لا يكفي . وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالإحلال ، وادخر ذلك في القيمة ذخيرة يأخذها من حسناته ، أو يحمله

ومن مهامات التائب إذا لم يكن عالماً، أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل . وما يحروم عليه ، حتى يمكنه الاستقامة . وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة ، إلا أن يتوب عن بعض الذنوب ، كالذى يتوب عن الشرب والزنا والغضب مثلاً ، وليس هذه توبة مطلقة . وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لا تصح . وقال قائلون : تصح . ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل . بل نقول من قال لا تصح إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلاً ، بل وجوده كعدمه ، فما أعظم خطأك . فإننا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب ، وقتلها لسبب لقتله . ونقول من قال تصح ، إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز ، فهذا أيضاً خطأ . بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر . ولستنا نتكلّم في خفايا أسرار عفو الله .

فإن قال من ذهب إلى أنها لا تصح . إنى أردت به أن التوبة عبارة عن الندم ، وإنما يندم على السرقة مثلاً لكونها معصية ، لا لكونها سرقة . ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجعه لأجل المعصية ، فإن العلة شاملة لهما ، إذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين ، لأن توجعه بقوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين ، فكذلك توجع العبد بقوات محبوبه ، وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا ، وكيف يتوجع على البعض دون البعض ، فالندم حالة يوجهها العلم بكون المعصية مفوتة للمحظوظ من العبث إنها معصية فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصي دون البعض ، ولو جاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدينين دون الآخر ، فإذا استحال ذلك من حيث إن المعصية في الخمرين واحد ، وإنما الدينان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للعصية ، والعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة ، فإذاً معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة ، وتلك الرتبة لا تناول إلا بالندم ، ولا يتصور الندم على بعض المثاليل فهو كالملوك المرتب على الإيجاب والقبول فإنه إذا لم يتم الإيجاب والقبول نقول إن العقد لا يصح ، لم يترتب عليه الشرة وهو أى الملك . وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب

ما تركه ، وثمرة الندم تكفير ما سبق فترك السرقة لا يكفر السرقة ، بل الندم عليها . ولا يتصور الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي .

وهو كلام مفهوم واقع ، يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا تخلي إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر ، أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة . أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر ، فأمر ممكн . لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله ، وأجاب لسخط الله ومقته . والصغراء أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه . كالذى يجني على أهل الملك وحرمه . ويجنى على دابته فيكون خائفاً من الجناية على الأهل ، مستحقرًا للجناية على الدابة والندم بحسب استعظم الذنب واعتقاد كونه بعيداً عن الله تعالى وهذا ممكн وجوده في الشرع . فقد كثر التائبون في الأعمار الحالية ، ولم يكن أحد منهم معصوماً . فلا تستدعي التوبة العصمة . والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيراً شديداً ، ويحذر السكر تحذيراً أخف منه ، على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلاً ، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر . فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جيئاً بحكم شهوته ، ندم على أكل العسل دون السكر . الثاني : أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضاً ممكн . لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله . كالذى يتوب عن القتل ، والنسب ، والظلم ومظالم العباد ، لعلمه أن ديوان العباد لا يترك ، وما بينه وبين الله يتسرع العفو إليه . فهذا أيضاً ممكн ، كاف تفاوت الكبائر والصغراء . لأن الكبائر أيضاً متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتکبها . ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعباد ، كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا ، مثلاً ، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور ، وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدرى . فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف ، يوجب ذلك ترکاً في المستقبل وندماً على الماضي . الثالث : أن يتوب عن صغيرة أو صغار ، وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة كان يتوب عن الغيبة ، أو عن

النظر إلى غير المحرم ، أو ما يجرى مجرأه ، وهو مصر على شرب الخمر فهو أيضاً ممكناً ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه ، ونادم على فعله ندماً إما ضعيفاً وإما قوياً ، ولكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها ، لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة ، وأسباب توجب قوة الشهوة ، فيكون الندم موجوداً ، ولكن لا يكون ملياً بتحريك العزم ، ولا قوياً عليه . فإن سلم عن شهوة أقوى منه ، إن لم يعارضه إلا ما هو أضعف ، فهر الخوف الشهوة وغلبها ، وأوجب ذلك ترك المعصية ، وقد تستند ضراوة الفاسق بالخمر ، فلا يقدر على الصبر عنه ، وتكون له ضرورة ما بالغية ، وثلب الناس ، والنظر إلى غير المحرم ، وخوفه من الله قد بلغ مبلغاً يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية ، فيوجب عليه جند الخوف انبعث العزم للترك ، بل يقول هذا الفاسق في نفسه . إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي ، فلا ينبغي أن أخلع العذر وأرخي العنان بالكلية ، بل أحاجده وبعض المعاصي ، فحسان أغله ، فيكون قهري له في البعض كفاره لبعض ذنبي . ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق أن يصلى ويصوم ، ولقليل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح ، وإن كانت الله فاترك الفسق لله ، فإن أمر الله فيه واحد ، فلا يتصور أن تقصد بصلاتك القرب إلى الله تعالى ، ما لم تقرب بترك الفسق وهذا حال بأن يقول . الله تعالى على أمران ، وللي على المخالف فيها عقوبات . وأنا ملى في أحدهما بقهر الشيطان ، عاجز عنه في الآخر ، فأنا أقهره فيما أقدر عليه ، وأرجو بمجاهدي فيه أن يكفر عنى بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتي . فكيف لا يتصور هذا ، وهو حال كل مسلم ؟ إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ، ولا سبب له إلا هذا . وإذا فهم هذا أن علبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها . والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم ، والندم يورث العزم . وقد قال النبي ﷺ «النَّدَمُ تَوْيَةٌ» ولم يستلزم الندم على كل ذنب . وقال «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ» ولم يقل التائب من الذنوب كلها .

وبهذه المعانى تبين سقوط قول القائل : إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة ، لأنها متماثلة في حق الشهوة ، وفي حق التعرض إلى سخط الله تعالى ، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ ، لتفاوتهما في اقتضاء السخط . ويتوه عن الكثير دون القليل ، لأن لكثرة الذنب تأثيراً في كثرة العقوبة ، فيساعد الشهوة بالقدر الذى يعجز عنه ، ويترك بعض شهوته لله تعالى كالمريض الذى حذر الطبيب الفاكهة ، فإنه قد يتناول قليلاًها ، ولكن لا يستكثر منها ، فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بد وأن يكون ما تاب عنه مختلفاً لما بقى عليه . إما في شدة المعصية وأما في غلبة الشهوة وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب ، تصور اختلاف حاله في الخوف والندم . فيتصور اختلاف حاله في الترك . فندهمه على ذلك الذنب ، ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بن لم يذنب ، وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهى . فإن قلت هل تصح توبة العينين من الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة ؟ فأقول لا . لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله . وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا يتركه إياه . ولكن أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذى قارفه ، وثار منه احتراق ، وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الواقع به باقية لكان حرقه الندم تجمع تلك الشهوة وتغلبها ، فإن أرجو أن يكون ذلك مكفرأً لذنبه ، وما حيا عنه سيكته إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ، ومات عقيب التوبة ، كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة . وتيسير أسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغاً أو جب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده . فإذا لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العينين هذا المبلغ ، إلا أنه لا يعرفه من نفسه . فإن كل من لا يشتهي شيئاً يقدر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف . والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه ، فعساه يقبله منه بل الظاهر أنه يقبله . والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تمحى عن القلب بشئين : أحدهما حرقه الندم ، والآخر

شدة المجاهدة بالترك في المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس
محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة . ولو لا هذا لقلنا إن
التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة ، يجاهد نفسه في عين تلك
الشهوة مرات كثيرة . وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً . فإن
قلت : إذا فرضنا تائبين ، أحدهما سكت نفسه عن النزوع إلى الذنب ، والآخر
بقي في نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها وينعنها . فما هي أفضلاً ؟ .

فأعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه . فقال أحمد بن أبي الحواري وأصحاب
أبي سليمان الداراني : إن المجاهد أفضل ، لأن مع التوبة فضل الجهاد . وقال
علماء البصرة : ذلك الآخر أفضل ، لأنه لو فتر في توبته كان أقرب إلى السلامة
من المجاهد الذي هو في عرضه الفتور عن المجاهدة وما قاله كل واحد من
الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة والحق فيه أن الذي
انقطع نزوع نفسه له حالتان .

إحداهما : أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة فقط ،
فالمجاهدة أفضل من هذا . إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه ، واستيلاء
دينه على شهوته ، فهو دليل قاطع على قوة اليقين ، وعلى قوة الدين . وأعني
بقوة الدين قوة الإرادة التي تتبع بإشارة اليقين ، وتعمق الشهوة المتبعة
بإشارة الشياطين . فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعاً . وقول القائل إن
هذا أسلم ، إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب ، فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ
الأفضل فيه خطأ وهو كقول القائل ، العين أفضل من الفحل ، لأنه في أمن من
خطر الشهوة والصبي أفضل من البالغ ، لأنه أسلم . والمفلس أفضل من الملك
القاهر القامع لأعدائه ، لأن المفلس لا عدو له ، والملك ربما يُغلب مرة وإن
غُلب مرات . وهذا كلام رجل سليم القلب ، قاصر النظر على الظواهر ، غير
عالم بأن العز في الأخطار ، وأن العلو شرطه اقتحام الأغوار . بل هو كقول
السائل : الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب ، أفضل في صناعة الاصطياد
وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس ، لأنه آمن من أن يجمع به فرسه ،

فتكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض ، وأمن من أن يعضه الكلب ويعتدى عليه . وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قوياً عالماً بطريق تأدبيهما أعلى رتبة أخرى بدرك سعادة الصيد .

الحالة الثانية : أن يكون بطلان التزوع بسبب قوة اليقين ، وصدق المجاهدة السابقة . إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة ، حتى تأدب بأدب الشرع ، فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين . وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها . فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاىي هيجان الشهوة وقمعها . وقول القائل ليس لذلك فضل للجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود الجهاد فإن الجهاد ليس مقصوداً لعيه . بل المقصود قطع ضراوة العدو ، حتى لا يستجرك إلى شهواته ، وإن عجز عن استجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين . فإذا قهرته وحصلت المقصود ، فقد ظفرت وما دمت في المجاهدة ، فأنت بعد في طلب الظفر . ومثاله كمثال من قهر العدو واسترقه ، بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد في صف القتال ، ولا يدرى كيف يسلم . ومثاله أيضاً مثال من علم كلب الصيد ورماض الفرس ، فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح ، بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد . ولقد زل في هذا فريق ، فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ، ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق ، وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماتتها بالكلية مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فعجز عنه ، فقال هذا حال فكذب بالشرع ، وسلك سبيل الإباحة ، واسترسل في اتباع الشهوات . وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من رب المهلكات . فإن قلت : فما قولك في تائبين ، أحدهما نسي الذنب ولم يشغلي بالتفكير فيه ، والآخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويخترق ندماً عليه ، فرأيتما أفضلاً ؟

أيُّهُما أَفْضَلُ ؟

فاغلهم أن هذا أيضاً قد اختلفوا فيه . فقال بعضهم : حقيقة التوبه أن تنصب .

ذنبك بين عينيك وقال آخر : حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك . وكل واحد من المذهبين عندنا حق ، ولكن بالإضافة إلى حالين . وكلام المتصوفة أبداً يكون قاصراً ، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ، ولا يهمه حال غيره ، فختلف الأوجبة لاختلاف الأحوال وهذا نقصان بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجد ، حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه ، لا يهمه أمر غيره . إذ طريقه إلى الله نفسه . ومنازلة أحواله . وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم . فالطرق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد ، والله أعلم بمن هو أهدي سبيلاً ، مع الاشتراك في أصل الهداية . فأقول : تصور الذنب وذكره والتفجع عليه ، كمال في حق المبتدئ ، لأنه إذا نسيه لم يكن احتراقه ، فلا تقوى إرادته وابتعاثه لسلوك الطريق . ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله . فهو بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان . فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق . بل سالك الطريق ينبغي أن لا يرجع على غير السلوك . فإن ظهر له مبادئ الوصول ، وانكشفت له أنوار المعرفة ولوامع الغيب ، استغرقه ذلك ، ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله ، وهو الكمال ، بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز ، طال تعب المسافر في عبوره مدة ، من حيث كان قد خرب جسره من قبل . فلو جلس على شاطئ النهر بعد عبوره ، يكفي متأسفاً على تخريبه الجسر ، كان هذا مانعاً آخر لاشتغال به بعد الفراغ من ذلك المانع . نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل ، بأن كان ليلاً فتعدن السلوك ، أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها ، فليطبل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر ، ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله . فإن حصل له من التبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله ، فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه . وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق ، والمقصد ، والعائق ، وطريق السلوك وقد أشرنا إلى تلوينات منه في كتاب العلم ، وفي ربع المهلكات . بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في

النعم في الآخرة لتزيد رغبته . ولكن إن كان شاباً ، فلا ينبغي أن يطيل فكره في كل ماله نظير في الدنيا كاللحون والتصور . فإن ذلك الفكر ربما يحرك رغبته ، فيطلب العاجلة ولا يرضى بالأجلة . بل ينبغي أن يتذكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط . فذلك لا نظير له في الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون حركاً للشهوة . فالمبتدئ أيضاً قد يستضر به . فيكون النسيان أفضل له عند ذلك .

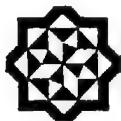
ولا يصدقناك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى من بكاء داود ونياحه عليه السلام . فإن قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج ، لأنهم قد يتزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللاحقة بأتمهم ، فإنهم ما بعثوا إلا لإرشادهم ، فعلمهم التلبس بما تنتفع أنفسهم مشاهدته ، وإن كان ذلك نازلاً عن ذروة مقامهم . فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مرديه بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها ، وقد كان مستعيناً عنها لفراغه عن المواجهة وتأديب النفس تسهيلاً للأمر على المريد . ولذلك قال ﷺ (١٣٢) « أَمَا إِنِّي لَا أُنْسِي وَلَكِنِّي أُنْسِي لِأُشْرِعُ » وفي لفظ « إِنِّي أُسْهُو لِأُسْنُ » .

ولا تعجب من هذا ، فإن الأم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كف شفقة الآباء ، وكالمواشي في كنف الرعاة . أما ترى الأب إذا أراد أن يستنبط ولده الصبي ، كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي ، كما قال ﷺ (١٣٣) للحسن « كُجُّ كُجُّ » لما أخذ من تمر الصدقة ووضعها في فيه . وما كانت فصاحته تصر عن أن يقول : ارم هذه الشمرة إنها حرام . ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ،

(١٣٢) حديث أبا إبي لا أنسى ولكن أنسى لأشرع : ذكره مالك ببلاغاً بغير استناد وقال ابن عبد البر لا يوجد في الموطأ إلا مرسلاً لا إسناد له وكذا قال حمزة الكناي إن لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأنطاكي وقد طال بخيث عنه وسؤاله عنه للأئمة والحافظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مستنداً .

(١٣٣) حديث أنه قال للحسن كجع كجع لما أخذ تمرة من الصدقة ووضعها في فيه : البخاري من حديث أبي هريرة وتقديم في كتاب الحلال والحرام .

رك الفصاحة ونزل إلى لكته^(١٣٤) . بل الذي يعلم شاة أو طائراً ، يصوت به رغاء^(١٣٥) أو صفيرأ تشبهها بالبهيمة والطائر ، تلطفاً في تعليمه . فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق ، فإنها مزلة أقدام العارفين فضلاً عن الغافلين ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .



(١٣٤) اللكتة : العيّ وتقل اللسان والعجمة والعجز عن الفصاحة والبيان .

(١٣٥) الرُّغاء : صوت البعير ، والنعام والضبع وقفز الرعد ، وبكاء الصبي الشديد ، والمقصود :
الصوت :



الفصل الرابع

أقسام العباد في دوام التوبة

اعلم أن النائبين في التوبة على أربع طبقات :

توبه ذى النفس المطمئنة

الطبقة الأولى : أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره .
فيتدارك ما فرط ^(١٣٦) من أمره ، ولا يخدث نفسه بالعود إلى ذنبه ، إلا الزلات
التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة . فهذا هو
الاستقامة على التوبة . وصاحبة هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات
حسنات . واسم هذه التوبة التوبة النصوح . واسم هذه النفس الساكنة النفس
المطمئنة ، التي ترجع إلى ربها راضية مرضية . وهؤلاء هم الذين إلهم الإشارة
بقوله عليه عليه السلام ^(١٣٧) « سَبَقَ الْمُفْرِدُونَ الْمُسْتَهْرِرُونَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَضَعَ الدُّكْرُ عَنْهُمْ أُوْزَارُهُمْ قَوَدُوا الْقِيَامَةَ خَفَاً » فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت
أزوار وضعها الذكر عنهم .

وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات ، فمن تائب
سكن شهواته تحت قهر المعرفة ، ففتر نزاعها ، ولم يشغله عن السلوك
صرعها ، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ، ولكنه ملي بمجاهدتها وردها .

(١٣٦) فرط سبق والفارط السابق .

(١٣٧) حديث سبق المفردون المستهرون بذكر الله — الحديث : الترمذى من حديث أبي هريرة وحسنـه . وقد تقدم .

ثم تتفاوت درجات النزاع أيضاً بالكثرة والقلة وباختلاف المدة، وباختلاف الأنواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر . من مختلف يموت قريباً من توبته ، يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ، ومن ممehل طال جهاده وصبره ، وتمادت استقامته وكثرت حسناته ، وحال هذا أعلى وأفضل ، إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة ، حتى قال بعض العلماء . إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات ، مع صدق الشهوة ، ثم يصبر عنه ، ويكسر شهوته خوفاً من الله تعالى . واشترط هذا بعيد ، وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض . ولكن لا ينبغي للمربي الضعيف أن يسلك هذا الطريق ، فتهيج الشهوة ، وتحضر الأسباب حتى يتمكن ، ثم يطمع في الانكفاء ، فإنه لا يؤمن بخروج عنان الشهوة عن اختياره ، فيقدم على المعصية ، وينقض توبته . بل طريقها الفرار . من ابتداء أسبابه الميسرة له ، حتى يسد طرقها على نفسه ، ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه . فيه تسلم توبته في الابتداء .

توبه ذى النفس اللوامة

الطبقة الثانية : تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات ، وترك كبار الفواحش كلها ، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعترف به ، لا عن عدم وتجريد قصد ، ولكن يبتلي بها في مجرى أحواله . من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها . ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف ، وجدد عزمه على أن يتشرم للاحتراز من أسبابها التي تعرضه لها . وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة ، إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة ، لا عن تصميم عزم وتخمين رأى وقصد . وهذه أيضاً رتبة عالية ، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى . وهي أغلب أحوال التائبين . لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه . وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره ، حتى يثقل ميزانه . فترجح كفة الحسنات فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات ، فذلك في

غايةً بعد . وهؤلاء هم حسن الوعد من الله تعالى ، إذ قال تعالى ﴿الَّذِينَ يجتبيُونَ كَبَائِرَ الْأَثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّهُمَّ إِنْ رَبَّكَ وَاسْعُ الْمَغْفِرَةِ﴾^(١٣٨) .

فكل إمام يقع بصغريرة ، لا عن توطين نفسه عليه ، فهو جدير بأن يكون من اللهم المغفو عنه . قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَفْسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَعْفَرُوا لِذُنُوبِهِم﴾^(١٣٩) فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم ، لتدmem لهم ولوهم أنفسهم عليه . وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقول ﷺ ، فيما رواه عنه على كرم الله وجهه^(١٤٠) « خيَارُكُمْ كُلُّ مُفْتَنٍ تَوَابٌ » وفي خبر آخر^(١٤١) « الْمُؤْمِنُ كَالسُّبْلَةِ يَفْنِي أَخْيَانًا وَيَمْلِي أَخْيَانًا » وفي الخبر^(١٤٢) « لَا بُدَّ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ ذَنْبٍ يَأْتِيهِ الْفَيْنَةُ بَعْدَ الْفَيْنَةِ » أي الحين بعد الحين .

فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ، ولا يلحق صاحبها بدرجة المcriين . ومن يؤيis مثل هذا عن درجة الثنائيين ، كالطبيب الذي يؤيis الصحيح من دوام الصحة ، بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى ، من غير مداومة واستمرار . وكالفقيه الذي يؤيis المتفقه عن نيل درجة الفقهاء ، بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقهي بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيis الخلق عن درجات السعادات ، بما يتفق لهم من فترات ومقارفة السيئات المختطفات . قال النبي ﷺ^(١٤٣) « كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءُونَ وَخَيْرٌ

(١٣٨) السجم : ٣٢

(١٤٠) حديث على خيار كل مفتتن تواب : البهقى في الشعب بسد ضعيف .

(١٤١) حديث المؤمن كالسبلة تفيء أحياناً وتميل أحياناً : أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس والضرانى من حديث عمارة بن ياسر والبهقى في الشعب من حديث الحسن وكلها ضعيفة وقلالاً تعلم بذن تفيء وفي الأمثال للرامهرمزى إسناد جيد لحديث أنس .

(١٤٢) حديث لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة الطيراني : والبهقى في الشعب من حديث ابن عباس تأسيد حسنة .

(١٤٣) حديث كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون : الترمذى واستغربه الحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وقال التوابون بدل المستغفرون « قلت فيه على بن مساعدة ضعفه البخارى . ١ .

الخطائين التوابون المستغفرون » وقال أيضاً^(١٤٤) «**المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رفعه** » أي واه بالذنوب ، راقع بالتوبة والندم . وقال تعالى **﴿أولئك يُؤتُونَ أجرهم مرتين بما صبروا ويدرُونَ بالحسنة السيئة﴾**^(١٤٥) فيما وصفهم بعدم السيئة أصلاً .

توبه ذى النفس المسولة

الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة ، لعجزه عن قهر الشهوة . إلا أنه مع ذلك مواطن على الطاعات ، وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة . وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان ، وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها ، وكفاه شرها . هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة . وعند الفراغ يتندم ويقول . ليتني لم أفعله ، وسأتوب عنه . وأجاده نفسي في قهرها . لكنه تسول نفسه ، ويسوف توبته مرة بعد أخرى . ويوماً بعد يوم . فهذه النفس هي التي تسمى النفس المسولة . وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم **﴿وآخرون اغترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئا﴾**^(١٤٦) فأمره من حيث مواطنه على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو : فعسى الله أن يتوب عليه . وعاقبته مخطرة من حيث تسويقه وتأخيره ، فربما يختطف قبل التوبة ، ويقع أمره في المشيئة . فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره ، وامتن عليه بالتوبة . التحق بالسابقين . وإن غلبته شقوته ، وقهرته شهوته ، فيخشى أن يتحقق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل ، لأنه مهما تعذر على المتفقه مثلاً الاحتراز عن شواغل التعلم ، دل تعذر على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين ، فيضعف الرجاء في حقه . وإذا يسرت له أسباب المواطنة على

(١٤٤) حديث المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رفعه : الصراون والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسنده ضعيف وقال فسعيد بدل فخيرهم .

رقم : أي بيديه بمعصيته ويرفعه بتوبته من رقت التوب إذا رمته .

٥٤، (١٤٦) التوبة : ١٠٢

التحصيل . دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين . فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودر كاتها بالمحسنات والسيئات ؛ بحكم تقدير مسبب الأسباب ، كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية وارتباط حصول فقه الناس ، الذي به تستحق المناصب العالية في الدنيا ، بترك الكسل ، والمواظبة على تفقيه النفس . فكما لا يصلح لمنصب الرياسة ، والقضاء ، والتقدم بالعلم . إلا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه ، فلا يصلح لملك الآخرة ونعمتها ، ولا للقرب من رب العالمين ، إلا قلب سليم صار طاهراً بطول التزكية والتطهير . هكذا سبق في الأزل بتديير رب الأرباب . ولذلك قال تعالى ﴿وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاها فَاللَّهُمَّ إِنَّمَا فُجُورُهَا وَنَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(١٤٧) فمهما وقع العبد في ذنب ، فصار الذنب نقداً والتوبة نسيئة ، كان هذا من علامات الخذلان . قال عليه السلام^(١٤٨) «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلٍ أَهْلِ الْجَنَّةِ سَبْعِينَ سَنَةً حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِهَا وَلَا يَقْرَئُ بَيْتَهُ وَيَبْرُئُ الْجَنَّةَ إِلَّا شِيرَ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلٍ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا» .

فإذا أخفف من الخاتمة قبل التوبة . وكل نفس فهو خاتمة ما قبله . إذ يمكن أن يكون الموت متصلةً به ، فليراقب الأنفاس ، وإلا وقع في الحذور ، ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسس .

توبه النفس الأمارة

الطبقة الثانية : أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله . بل ينهى إلهامك الغافل في اتباع شهواته . وهذا من جملة المcriين . وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير . ويخاف على هذا سوء

(١٤٧) الشمس : ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .

(١٤٨) حديث إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة — الحديث : متفق عليه من حديث سهل بن سعدون قوله سبعين سنة وسلم من حديث أبي هريرة أن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة الحديث وأحمد من رواية شهر بن حوش عن أبي هريرة أن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة وشهر مختلف فيه .

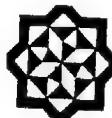
الخاتمة ، وأمره في مشيئة الله . فإن ختم له بالسوء على شقاوة لا آخر لها ، وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فيتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين . ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا نطلع عليه ، كما لا يستحيل أن يدخل الإنسان خراباً ليجد كنزاً فيتفق أن يجده ، وإن يجلس في البيت ليجعله الله عالماً بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم . فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار ، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار . وطلبها بمجرد لو جاء مع خراب الأعمال ، كطلب الكنوز في الموضع الخربة ، وطلب العلوم من تعليم الملائكة . وليت من اجتهد تعلم ، وليت من انتحر استغنى ، وليت من صام وصلى غفر له . فالناس كلهم محرومون إلا العاملون ، والعاملون كلهم محرومون إلا العاملون ، والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون ؛ والمخلصون على خطير عظيم .

وكأن من خرب بيته وضيع ماله ، وترك نفسه وعياله جياعاً ، يزعم أنه يتضرر فضل الله بأن يرزقه كنزاً يجده تحت الأرض في بيته الخرب ، يعد عند ذوى البصائر من الحمقى والغورين ، وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدوة الله تعالى وفضله ، فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة ، مصر على الذنب ، غير سالك سبيل المغفرة ، يعد عند أرباب القلوب من المتعوهين .

والعجب من عقل هذا المتعوه ، وترويجه حماقه في صيغة حسنة ، إذ يقول : إن الله كريم ، وجنته ليست تضيق على مثل ، ومعصيتي ليست تضره . ثم تراه يركب البحار ، ويقتحم الأوعار في طلب الدينار ، وإذا قيل له إن الله كريم ، ودنانير خزاناته ليست تقصر عن فدرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك ، فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تخسب يستحق قائل هذا الكلام ويستهزئ به ، ويقول ما هذا الهوس ؟ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وإنما ينال ذلك بالكسب ، هكذا قدره مسبب الأسباب ، وأجرى به سنته ، لا تدلي لسنة الله . ولا يعلم المغدور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن

سته لا تبدل لها فيما جميماً . وأنه قد أخبر إذ قال ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِإِلَّا سَبَقَتْهُ مَا سَعَى ﴾^(١٤٩) فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكرم في الدنيا . وكيف يقول . ليس مقتضى الكريم الفتور عن كسب المال ، ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم ، وأن ذلك بمحكم الكرم يعطيه عن غير جهد في الآخرة ، وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا . وينسى قوله تعالى ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوَعْدُونَ ﴾^(١٥٠) .

- فنعود بالله من العمى والضلال . فيما هذا إلا انتكاس على أم الرأس ، وانغمس في ظلمات الجهل . وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلاً تحت قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَنْصَرَنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾^(١٥١) أى أبصرنا أنك صدقت إذ قلت ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِإِلَّا سَبَقَتْهُ مَا سَعَى ﴾^(١) فارجعوا نسعي . وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ، ويخنق عليه العذاب : فنعود بالله من دواعي الجهل والشك والارتياح السائق بالضرورة إلى سوء المقلب والمتأب .



(١٤٩) التجم : ٣٩

(١٥٠) النازيات : ٢٢

(١٥١) السجدة : ١٢



الفصل الخامس

بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن إمام بحكم الاتفاق

اعلم أن الواجب عليه التوبة ، والندم ، والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده ، كما ذكرنا طريقه . فإن لم تساعدك النفس على العزم على الترك لغيبة الشهوة ، فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني ، وهو أن يدرا بالحسنة السيئة ليمحوها ، فيكون من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب ، وإما باللسان وإنما بالجراح . ولتكن الحسنة في محل السيئة ، وفيما يتعلق بأسبابها .

فأما بالقلب ، فليکفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ، ويذلل تذلل العبد الآبق ، ويكون ذلك بحيث يظهر لسائر العباد ، وذلك بنقصان كبره فيما بينهم . مما للعبد الآبق المذنب وجه للتکير على سائر العباد . وكذلك يضرر بقلبه الخيرات للMuslimين ، والعزم على الطاعات .

وأما اللسان ، فبالاعتراف بالظلم والاستغفار ، فيقول رب ظلمت نفسى وعملت سوءاً فاغفر لى ذنبي وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار ، كما أوردها في كتاب الدعوات والأذكار .

وأما الجوارح ، وبالطاعات ، والصدقات ، وأنواع العبادات . وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بثانية أعمال كان العفو عنه مرجواً . أربعة من

أعمال القلوب ، وهي التوبة او العزم على التوبة ، وحب الإلقاء عن الذنب ، وتخوف العقاب عليه ، ورجاء المغفرة له ، وأربعة من أعمال الجوارح وهي أن تصلى عقيبة الذنب ركعتين ، ثم تستغفر الله تعالى سبعين مرة ، وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ، ثم تصدق بصدقه وتصرم يوماً . وفي بعض الآثار^(١٥٢) : تسبيغ الوضوء ، وتدخل المسجد وتصلى ركعتين .

وفي بعض الأخبار^(١٥٣) : تصلى أربع ركعات . وفي الخبر^(١٥٤) «إذا عملت سبعة فاتيئها حسنة تكفر بها السر بالسر والعلانية بالعلانية» ولذلك قيل : صدقه السر تکفر ذنوب الليل . وصدقه الجهر تکفر ذنوب النهار .

وفي الخبر الصحيح^(١٥٥) أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ، إني عاجلت امرأة فأصبحت منها كل شيء إلا الميس . فاقض على بحکم الله تعالى . فقال ﷺ «أو ماصلحت معنا صلالة الغدأة» قال بلى . فقال ﷺ «إن الحسنات يذهبن السيئات» وهذا يدل على أن ما دون الزنا من معالجة النساء صغيرة . إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله ﷺ «الصلوات الخمس كفارات لما يئثرون

(١٥٢) اثنان من مكفرات الذنب أن تسبيغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلى ركعتين : أصحاب السن من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه ما من عبد يذنب شيئاً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصل ثم يستصر الله إلا غفر الله له لفظ أبي داود وهو في الكبرى للنساء مرتفعاً وموقوفاً فعل المصنف غير بالأثر لإرادة الموقوف فقد ذكرته احتياطاً وإلا فالآثار ليست من شرط كتابي

(١٥٣) حديث التکفير بصلة أربع ركعات : ابن مردویہ في التفسیر والبیهقی في الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل من أصحاب النبي ﷺ يوماً امرأة - الحديث : وفيه فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فإذا هو مثل المدببة ققام نادماً فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فقال له النبي ﷺ صل أربع ركعات فأنزل الله عز وجل وأقم الصلاة طرق النهار الآية واستنادهجيد .

(١٥٤) حديث إذا عملت سبعة فاتيئها حسنة تکفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية : البیهقی في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبراني من روایة عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلفظ وما عملت من سوء فأخذت الله فيه توبۃ السر بالسر - الحديث .

(١٥٥) حديث أن رجلاً قال يارسول الله إني عاجلت امرأة فاصبت منها كل شيء إلا الميسين - الحديث : في نزول إن الحسنات يذهبن السيئات متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله أو ما صلحت معنا صلالة الغدأة ورواه مسلم من حديث أنس وفيه هل حضرت معنا الصلاة قال نعم ومن حديث أبي أمامة وفيه ثم شهدت الصلاة معنا قال نعم - الحديث .

إِلَّا الْكَبَائِرَ .

فعلى الأحوال كلها ، ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ، ويجمع سيئاته ، و تهدى في دفعها بالحسنات .

فإن قلت : فكيف يكون الاستغفار نافعاً من غير حل عقدة الإصرار ، وفي الخبر^(١٥٦) «**الْمُسْتَغْفِرُ مِنَ الدُّنْبِ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَيْهِ كَالْمُسْتَهْزِئِ بِآيَاتِ اللَّهِ**» وكان بعضهم يقول : أستغفر الله من قولي أستغفر الله . وقيل : الاستغفار باللسان توبه الكاذبين . وقالت رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير .

استغفار العبد أمان له

فاعلم : أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ، ذكرناها في كتاب الأذكار والدعوات ، حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول ﷺ ، فقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(١٥٧) فكان بعض الصحابة^(١٥٨) يقول : كان لنا أمانان ، ذهب أحدهما . وهو كون الرسول فينا ، وبقى الاستغفار معنا . فإن ذهب هلكنا فنقول :

الاستغفار الذي هو توبه الكاذبين ، هو الاستغفار بمجرد اللسان ، من غير أن يكون للقلب فيه شرارة . كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة . أستغفر الله . وكما يقول إذا سمع صفة النار . نعوذ بالله منها . من غير أن يتاثر به

(١٥٦) حديث المستغرق من الندب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله : ابن أبي الدنيا في التوبة من طريقه البهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزئ بربه وسننه ضعيف .

(١٥٧) الأنفال : ٣٣

(١٥٨) حديث بعض الصحابة في قوله تعالى وما كان الله ليعندهم وأنت فيهم الآية كان لنا أمانان ذهب أحدهما أحد من قول أبي موسى الأشعري ورفعه الترمذى من حديثه أنزل الله على أمانين — الحديث . وضيقه ، وابن مردويه في تفسيره من قول ابن عباس .

لبه . وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ، ولا جدوى له . فأما إذا أضاف .
 ليه تضرع القلب إلى الله تعالى ، وابتهاله في سؤال المغفرة ، عن صدق إرادة
 رخلوص نية ورغبة ، فهذه حسنة في نفسها ، فتصلح لأن تدفع بها السيئة .
 وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار . حتى قال ﷺ «مَا
 أَصْرَّ مِنْ اسْتَغْفِرَ وَلَوْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(١٥٩) وهو عبارة عن الاستغفار
 بالقلب . وللتوبة والاستغفار درجات . وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته
 إلى أواخرها . ولذلك قال سهل . لا بد للعبد في كل حال من مولاه . فاحسن
 أحواله أن يرجع إليه كل شيء : فإن عصى قال يارب استر علىي . فإذا فرغ من
 المعصية قال يارب تب على . فإذا تاب قال يارب ارزقني العصمة . وإذا عمل
 قال يارب تقبل مني .

وسئل أيضاً عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال . أول الاستغفار
 الاستجابة ، ثم الإنابة ، ثم التوبة . فالاستجابة أعمال الجوارج ، والإنابة أعمال
 القلوب . والتوبة إقباله على مولاه ، بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تعصيه
 الذي هو فيه ، ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر . فعند ذلك يغفر له ، ويكون
 عنده مأواه ، ثم التنقل إلى الانفراد ، ثم الثبات ، ثم البيان ، ثم الفكر ثم المعرفة ،
 ثم المناجاة ، ثم المصادفة ، ثم المولا ثم مخادثة السر ، وهو الخلة . ولا يستقر هذا
 في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه ، والذكر قوامه . والرضا زاده ، والتوكيل
 صاحبه . ثم ينظر الله إليه ، فيرفعه إلى العرش ، فيكون مقامه مقام حملة العرش .

وسئل أيضاً عن قوله ﷺ «التَّائِبُ حَبِيبُ اللَّهِ» فقال : إنما يكون حبيباً إذا
 كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى ﴿الْتَّائِبُونَ الْغَابِلُونَ﴾^(١٦٠) الآية – وقال
 الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه .

(١٥٩) حديث ما أصر من استغفر — الحديث : تقدم في الدعوات .

(١٦٠) التوبة : ١١٢

ثمرة التوبة

والمقصود أن للتوبة ثرتين . إحداهما تكثير السيئات ، حتى يصير كمن لا ذنب له . والثانية نيل الدرجات ، حتى يصير حبيباً . وللتکفير أيضاً درجات : فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية ، وبعضه تخفيف له . ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة . فالاستغفار بالقلب ، والتدارك بالحسنات ، وإن خلا عن حل عقدة الإصرار من أوائل الدرجات : فليس يخلو عن الفائدة أصلاً . فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها . بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها ، أن قول الله تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(١٦١) صدق وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر ، كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر ، لكان الثانية مثلها ، ولكن لا يرجع الميزان بأحمال الذرات . وذلك بالضرورة محال . بل ميزان الحسنات يرجع بذرات الخير إلى أن ينفل فترفع كفة السيئات . فإذاك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأبه ، وذرات المعاصي فلا تفهها كالمرأة الخرقاء ، تكسل عن الغزل تعللاً بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول : أى غنى يحصل بخيط ، وما وقع ذلك في الثياب ؟ ولا تدرى المعتوه أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً ، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة .

فإذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلاً . بل أقول الاستغفار باللسان أيضاً حسنة . إذ حرقة اللسان بها عن غفلة خير من حرقة اللسان في تلك الساعة بغية مسلم ، أو فضول كلام . بل هو خير من السكوت عنه . فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه . وإنما يكون نصاناً بالإضافة إلى عمل القلب . ولذلك قال بعضهم لشيخه ألى عثمان المغربي : إن

^(١٦١) الزلزال : ٧

لساني في بعض الأحوال يجري بالذكر والقرآن وقلبي غافل ، فقال : اشكر الله إذا استعمل جارحة من جوارحك في الخير ، وعوده الذكر ، ولم يستعمله في الشر ولم يعوده الفضول . وما ذكره حق . فإن تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع ، يدفع جملة من المعاصي . فمن تعود لسانه الاستغفار إذ سمع من غيره كذباً سبق لسانه إلى ما توعده فقال : استغفر الله . ومن تعود الفضول ، سبق لسانه إلى قول : ما أحمقك ، وما أقبح كذبك ! ومن تعود الاستعاذه إذا حدث بظهور مبادئ الشر من شرير ، قال بمحكم سبق اللسان . نعود بالله ، وإذا تعود الفضول قال : لعنة الله . فيعصى في إحدى الكلمتين ويسلم في الأخرى . وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معانى قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيغُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١٦٢) ومعنى قوله تعالى ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِحَسَنَةٍ يُضَاعِفُهَا وَإِنَّ اللَّهَ أَجْرًا عَظِيمًا يُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا أَجْرِيماً﴾^(١٦٣) فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول ، هذا تضعيف في الدنيا لأدنى الطاعات . وتضعيف الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون .

فإياك وأن تلمح في الطاعات مجرد الآفات ، ففتتر رغبتك عن العبادات ، فإن هذه مكيدة روجها الشيطان بلعنته على المغرورين ، وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر ، وأهل التفطن للخفايا والسرائر . فأى خير في ذكرنا باللسان مع غفلة القلب . فانقسم الخلق في هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات .

أما السابق : فقال صدقت يا ملعون ، ولكن هي كلمة حق أردت بها باطلأ . فلا جرم أعدبك مرتين ، وأرغم أنفك من وجهين ، فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب فكان كالذى دوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه .

(١٦٢) التوبه : ١٢٠

(١٦٣) النساء : ٤٠

وأما الظالم المغور ، فاستشعر في نفسه تخلاءقطنة هذه الدقيقة ، ثم عجز عن الإخلاص بالقلب ، فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر ، فأسعف الشيطان ، وتسلى بحمل غروره ، فثبت بينهما المشاركة والموافقة . كما قيل : وافق شن طبقه ، وافقه فاعتنقه .

وأما المقتصد ، فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب في العمل ، وتفطن لقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب . ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول ، فاستمر عليه ، وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير .

فكان السابق كالحائك الذي ذمت حياكه فتركها وأصبح كاتباً . والظالم المتخلف كالذى ترك الحياة أصلاً وأصبح كتاباً . والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال : لا أنكر مذمة الحياة ، ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكتاب . فإذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياة ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير . فلا تظن أنها تندم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله ، بل تندم غفلة القلب . فهو يحتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه . فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضاً . احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد .

فهكذا ينبغي أن تفهم ذم ما يننم ، وحمد ما يمحى ، وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق : حسنات الأبرار سيئات المقربين . فإن هذه أمور ثبت بالإضافة ، فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة . بل ينبغي أن لا تستحرق ذرات الطاعات والمعاصي . ولذلك قال جعفر الصادق : إن الله تعالى خبأ ثلاثة في ثلاثة : رضاه في طاعته ، فلا تحقرו منها شيئاً ، فلعل رضاه فيه . وغضبه في معاصيه ، فلا تحقرو منها شيئاً ، فلعل غضبه فيه . وتحبأ ولايته في عباده ، فلا تحقروا منهم أحداً ، فلعله ولـ الله تعالى . وزاد وحباً إيجابته في دعائه ، فلا تتركوا الدعاء ، فربما كانت الإجابة فيه .

الركن الرابع

في دواء التوبة، وطريق العلاج حل عقدة الإصرار

- تهديد .
- طلب العلماء أول علاج العاصين وهو الركن الأول .
- الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار .
- الركن الثاني في العلاج : الصبر .
- أسباب الوقوع في الذنوب .
- علاج الأسباب الموجبة للإصرار .

تَهْيِدُ

تهييد

اعلم أن الناس قسمان :

القسم الأول : شاب لا صبوة له ، نشأ على الخير واجتناب الشر ، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ (١٦٤) « تَعَجَّبَ رَبُّكَ مِنْ شَابٍ لَّيْسَتْ لَهُ صَبَوَةٌ » وهذا عزيز نادر .

والقسم الثاني : هو الذي لا يخلو عن مقارفة الذنوب . ثم هم ينقسمون إلى مُصِيرَين وإلى تائبين . وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار ، ونذكر الدواء فيه .

فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء . ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء، فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ، ورفعه ، وإبطاله . ولا يبطل الشيء إلا بضده : ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة . ولا يضاد الغفلة إلا العلم ، ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة . والغفلة رأس الخطايا . قال تعالى ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١٦٥) فلا دواء إذًا للتوبة إلا معجون يُعجن من حلوة العلم ، ومرارة الصبر . وكما يجمع السكريجيين (١٦٦) بين حلوة السكر ومحوضة الخل ، ويقصد بكل منها غرض آخر في العلاج بمجموعهما ، فيقمع الأسباب

(١٦٤) حديث يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة : أحمد والطبراني من حديث عقة بن عامر و فيه ابن هبعة .

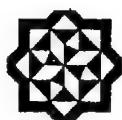
ليست له صبوة : أى ميل إلى هوى .

(١٦٦) حلبيط من العسل والخل .

(١٦٥) النحل : ١٠٨ ، ١٠٩ .

المهيبة للصفراء ، فهكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب بما به من مرض
الإصرار .

فإذاً لهذا الدواء أصلان : أحدهما العلم ، والآخر الصبر . ولا بد من
بيانهما .





الفصل الأول

طلب العلماء أول علاج العاصين والأصل الأول

فإن قلت اينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص؟ . فاعلم أن العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب . ولكن لكل مرض علم يخصه . كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة ، ولكن يختص كل علة علم مخصوص . فكذلك دواء الإصرار . نذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ، ليكون أقرب إلى الفهم فنقول :

الإيمان بأصل الشرع

يحتاج المريض إلى التصديق بأمر :

الأول : أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسباباً يتوصل إليها بالاختيار ، على رتبة مسبب الأسباب ، وهذا هو الإيمان بأصل الطب . فإن من لا يؤمن به لا يستغل بالعلاج ، وينتقم عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه ، الإيمان بأصل الشرع وهو أن للسعادة في الآخرة سبباً هو الطاعة ، وللشقاوة سبباً هو المعصية . وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان .

الوثق بالرسول ﷺ

الثاني : أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب . حاذق فيه ، صادق فيما يعبر عنه ، لا يلتبس ولا يكذب . فإن إيمانه بأصل الطب ينفعه بمجرده دون هذا الإيمان . ووازنه مما نحن فيه ، العلم بصدق الرسول ﷺ ، والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق ، لا كذب فيه ولا خلف .

الإصغاء إلى وعد الله وتحذيره

الثالث : أنه لا بد أن يصغي إلى الطبيب فيما يحذره من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة ، حتى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتياط فتكون سدة الخوف باعفة له على الاحتياط وزانه من الدين الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى ، والتصديق بجميع ما يقى إلى سمعه من ذلك ، من غير شك واسترابة^(١٦٧) ، حتى ينبعث به الخوف المقوى على الصبر ، الذي هو الركن الآخر في العلاج .

طلب العلم ونشره

الرابع : أن يصغي إلى الطبيب فيما يخص مرضه ، وفيما يلزمها في نفسه الاحتياط عنه ، ليُعرّفه أو لا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ، وما يكرره ومشروبه . فليس على كل مريض الاحتياط عن كل شيء ، ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص ، وعلاج خاص ، وزانه من الدين أن كل عبد فليس يتلئ بكل شهوة ، وارتكاب كل ذنب ، بل لكل مؤمن ذنب

^(١٦٧) الاسترابة : الوقوع في الريبة .

خصوص ، أو ذنب مخصوصة . إنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنها نوب ، ثم إلى العلم باقاتها وقدر ضررها ، ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى لصبر عنها ، ثم إلى العلم بكيفية تكثير ما سبق منها . فهذه علوم يختص بها طباء الدين . وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فالعاشر إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب ، وهو العالم . وإن كان لا يدرى أن ما يرتكبه ذنب ، فعلى العالم أن يعرف ذلك . وذلك بأن يتکفل كل عالم بإقليم أو بلدة ، أو محلة ، أو مسجد ، أو مشهد فيعلم أهله دينهم ، ويميز ما يضرهم عما ينفعهم ، وما يشقّهم عما يسعدهم . ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يُسأل عنه . بل ينبغي أن يتصدّى لدعوة الناس إلى نفسه . فإنهم ورثة الأنبياء ، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم ، بل كانوا ينادونهم في مجتمعهم ، ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ، ويطلبون واحداً واحداً قيرشلدونهم ؛ فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم . كما أن الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه ، لا يعرف برصه ما لم يُعرّفه غيره . وهذا فرض عين على العلماء كافة^(١٦٨) .

وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلّة فقيهاً متديناً ، يعلم الناس دينهم فإن الخلق لا يولدون إلا جهالاً ، فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع . والدنيا دار المرضى . إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ، ولا على ظهرها إلا سقيم . ومبرضي القلوب أكثر من مرضى الأبدان . والعلماء أطباء ، والسلطان قوام دار المرضى . فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم ، يسلم إلى السلطان ليكشف شره ، كما يُسلم الطبيب المريض الذي لا يختفي ، أو الذي غالب عليه الجنون ، إلى القسم ليقيمه بالسلسل والأغلال ، ويَدْعُ شره عن نفسه وعن سائر الناس .

أكثريّة مرض القلوب على مرض الأبدان

وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل :

(١٦٨) إذا قام به واحد منهم لا يسقط عن الآخرين .

إحداهم : أن المريض به لا يدرى أنه مريض .

والثانية : أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم . بخلاف مرض البدن ، فإن عاقبته موت مشاهد ، تنفر الطياع منه . وما بعد الموت غير مشاهد . وعاقبة الذنوب موت القلب ، وهو غير مشاهد في هذا العالم ، فقللت التفراة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ؛ فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب ، ويجهد في علاج مرض البدن من غير اتكل .

والثالثة : وهو الداء العossal فقد الطيب . فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا في هذه الأعصار^(١٦٩) مرضًا شديداً عجزوا عن علاجه ، وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم فاضطروا إلى إغواء الخلق ، والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضًا . لأن الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء ، فلم يقدروا على تحذير الخلق منه ، استنكافاً من أن يقال لهم . فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم ؟ فهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء ، وانقطع الدواء ، وهلك الخلق لفقد الأطباء . بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء ، فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغدوا ، وإذا لم يصلحوا لم يفسدوا . ولি�تهم سكتوا وما نطقوا . فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم في مواطنهم إلا ما يرحب العوام ، ويستميل قلوبهم . ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء ، وتغليب أسباب الرجاء ، وذكر دلائل الرحمة ، لأن ذلك ألد في الأسماع ، وأخف على الطياع . فتنصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصي ، ومزيد ثقة بفضل الله . ومهما كان الطيب جاهلاً أو خائناً ، أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه ، فالرجاء والخوف دواءان ، ولكن لشخصين متضادين العلة أما الذي غالب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية ، وكلف نفسه ما لا تطيق ، وضيق العيش على نفسه بالكلية ، فتكسر بيّورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرجاء ، ليعود إلى الاعتدال .

(١٦٩) جمع عصر ، وهو الزمن .

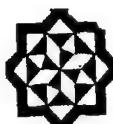
وكذلك المصير على الذنوب ، المشتهى للتوبة ، الممتنع عنها بحكم القنوط .
واليأس استعظاماً لذنبه التي سبقت ، يعالج أيضاً بأسباب الرجاء ، حتى
يطمع في قبول التوبة فيتوب .

فأما معالجة المغدور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء ، فيضاهي
معالجة المحرر بالعمل طلباً للشفاء . وذلك من ذأب الجهل والأغبياء . فإذا
أنداد الأطباء هي المعضلة الزباء^(١٧٠) التي لا تقبل الدواء أصلاً .

طريق الوعظ

قإن قلت : فاذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الوعاظ في طريق الوعظ
مع الخلق . فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه ..

نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار ، وحمل الناس على ترك
الذنوب . وهي أربعة أنواع .



(١٧٠) من الدواهي الشديدة . كما في القاموس .



الفصل الثاني

الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار

ذكر الآيات والأخبار الخوفة

الأول : أن يذكر ما في القرآن من الآيات الخوفة للمذنبين والعاصيـن ، وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار . مثل قوله ﷺ : « مَا مِنْ يَوْمٍ طَلَعَ فَجْرُهُ وَلَا لَيْلَةً غَابَ شَفَقُهَا إِلَّا وَمَلَكًا نَّيَّاجَوَبَانَ بِأَرْبَعَةِ أَصْوَاتٍ يَقُولُ أَحَدُهُمَا يَا لَيْتَ هَذَا الْخَلْقَ لَمْ يُخْلِقُوكُمْ وَيَقُولُ الْآخَرُ يَا لَيْتُهُمْ إِذْ خَلَقُوكُمْ عَلِمُوا لِمَاذَا خَلَقُوكُمْ فَيَقُولُ الْآخَرُ يَا لَيْتُهُمْ إِذْ لَمْ يَعْلَمُوكُمْ لِمَاذَا خَلَقُوكُمْ عَمِلُوكُمْ بِمَا عَلِمُوكُمْ » وفي بعض الروايات « لَيْتُهُمْ تَجَالَسُوا فَنَذَاكُرُوكُمْ مَاعْلَمُوكُمْ وَيَقُولُ الْآخَرُ يَا لَيْتُهُمْ إِذْ لَمْ يَعْمَلُوكُمْ بِمَا عَلِمُوكُمْ تَابُوكُمْ مِمَّا عَمِلُوكُمْ » .

وقال بعض السلف . إذا أذنب العبد ، أمر صاحب العين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه سـت ساعات . فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه . وإن لم يستغفر كتبها . وقال بعض السلف . ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كيسفاً^(١٧٢) فيقول الله تعالى للأرض والسماء : « كـفـا عن عبدي

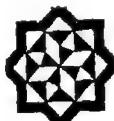
(١٧١) حديث ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوـبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما يـالـيـتـ هـذـاـ الـخـلـقـ لـمـ يـخـلـقـوكـمـ — الحديث : غريب لم أجده هكذا وروى أبو منصور الديلمي في مسنـد الفردوس من حـديث ابن عمر بـسـند ضـعـيف : إنـ اللهـ مـلـكـاـ يـنـادـيـ فـيـ كـلـ لـيـلـةـ أـبـنـاءـ الـأـرـبـعـينـ زـرـعـ قـدـ دـنـاـ حـصـادـهـ — الحديث : وفيـ لـيـتـ الـخـلـاقـ لـمـ يـخـلـقـوكـمـ وـلـيـتـهـمـ إـذـ خـلـقـوكـمـ عـلـمـوكـمـ لـمـاـذـاـ خـلـقـوكـمـ فـتـذـاكـرـوكـمـ — الحديث :

(١٧٢) جـمـعـ كـسـفـةـ وـهـيـ الـقطـعةـ .

وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه . ولو خلقناه لرحمته . ولعله يتوب إلى فاغفر له
ولعله يستبدل صالحًا فأبدله له حسنات » . فذلك معنى قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ
يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تُرُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَخِيلٍ مِنْ
بَعْدِهِ﴾ ^(١٧٣) .

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ^(١٧٤) « الطَّابُعُ مُعْلَقٌ بِقَائِمَةِ
الْعَرْشِ فَإِذَا اتَّهِكَتِ الْحُرْمَاتُ وَاسْتَحْلَلَتِ الْمَحَارِمُ أَرْسَلَ اللَّهُ الطَّابُعَ فِي طَبِيعِ
عَانِ الْقُلُوبِ بِمَا فِيهَا » وفي حديث مجاهد ^(١٧٥) « الْقَلْبُ مُثْلُ الْكَفَّ
الْمَفْتُوحَةِ كَمَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَلِيلًا الْقَبْضَةَ أَصْبَعَ حَتَّى تَنْقِصَ الْأَصَابِعَ كُلُّهَا
فَيَسِّدَ عَلَى الْقَلْبِ فَذَلِكَ هُوَ الطَّبِيعُ » وقال الحسن : إن بين العبد وبين الله
حداً من المعاishi معلوماً ، إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه ، فلم يوفقه بعدها
خير .

والأخبار والآثار في ذم المعاishi ومدح التائبين لا تمحى . فينبغي أن
يستكثر الواقع منها إن كان وارث رسول الله عليه السلام ^(١٧٦) ، فإنه ما خلف ديناراً
ولا درهماً ، إنما خلف العلم والحكمة ، وورثه كل عالم بقدر ما أصابه .



^(١٧٣) فاطر : ٤١ .

^(١٧٤) حديث عمر الطابع معلق بقائمة من قوائم العرش فإذا انتهكت الحرمات — الحديث : ابن عدى
وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر .

^(١٧٥) حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة قلت هكذا قال المصنف في حديث مجاهد وكأنه أراد به
قول مجاهد وكذا ذكره . المقسرون من قوله وليس بمرفوع وقد روياه في شعب الإيمان للبيهقي من قول
حذيفة .

^(١٧٦) حديث أنه عليه السلام ما خلفت ديناراً ولا درهماً إنما خلف العلم والحكمة : البخاري من حديث
عمرو بن العاص قال ما ترك رسول الله عليه السلام عند موته ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولمسلم من
حديث عائشة ما ترك ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً وفي الحديث أن النبي لم يورثوا
ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم — الحديث : وقد تقدم في العلم .

ذكر حكايات ذنوب الأنبياء والأولياء

النوع الثاني : حكايات الأنبياء والسلف الصالحين ، وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم . فذلك شديد الواقع ظاهر النفع في قلوب الخلق .

مثل أحوال آدم عليه السلام في عصيانه ، وما لقيه من الإخراج من الجنة ، حتى روى أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل^(١٧٧) عن جسده ، وبدت عورته ، فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه ، فجاءه جبريل عليه السلام ، فأخذ التاج عن رأسه ، وحل الإكليل عن جبينه . ونودي من فوق العرش . اهبطا من جواري فإنه لا يجاورني من عصاني . قال فالتفت آدم إلى حواء باكيًا وقال : هذا أول شئون المعصية ، أخرجنا من جوار الحبيب .

وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام ، لما عوقب على خططيته لأجل التحال الذي عبد في داره أربعين يوماً ، وقيل لأن المرأة سأله أن يحكم لأيتها فقال نعم ولم يفعل . وقيل بل أححب بقلبه أن يكون الحكم لأيتها على خصمها لمكانتها منه ، فسلب ملكه أربعين يوماً ، فهرب تائهاً على وجهه . فكان يسأل بكفه فلا يطمع . فإذا قال أطعموني فإني سليمان بن داود شج ، وطرد ، وضرب ، وحکى أنه استطاع من بيت لامرأته فطردته وبصقت في وجهه . وفي رواية أخرى جرت عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه ، إلى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت ، فلبسه بعد انقضاء الأربعين : أيام العقوبة . قال فجاءت الطيور فعكفت على رأسه ، وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله . فاعتذر إليه بعض من كان جنّى عليه . فقال لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ، ولا أحمدكم في عذركم الآن . إن هذا أمر كان من السماء ولا بد منه .

(١٧٧) حلال جمع حلة . وهي الملابس التي يتحلى بها الإنسان ويستر .

.. وروى في "مراثيليات" أن رجلاً تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه ، فراودته نفسه وطالبه بها ، فجادلها واستعصم . قال فباء الله ببركة تقواه ، فكان نبياً في بنى إسرائيل . وفي قصص موسى عليه السلام ، أنه قال للخضر عليه السلام . بم أطلعك الله على علم الغيب ؟ قال بترك العاصي لأجل الله تعالى .

وروى أن الريح كانت تسير بسلام عليه السلام ، فنظر إلى قميصه نظرة ، وكان جديداً ، فكانه أujeجه . قال فوضعه الريح . فقال لم فعلت هذا ولم أمرك ؟ قالت : إنما نطيعك إذا أطعت الله .

وروى أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام ، أتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال : لا . قال : أقولك لإخوته أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت عليه الذئب ولم ترجوني ؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له ؟ أو تدرى لم رددته عليك ؟ قال : لا . قال : لأنك رجوتني وقلت : ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾^(١٧٨) وبما قلت : ﴿إِذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَأسُوا﴾^(١٧٩) وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك : ﴿إِذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾^(١٨٠) قال الله تعالى : ﴿فَأَنْسَأَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضُعْفَ سِينِينَ﴾^(١٨١) . وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر . ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأسماء ، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار ، لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتتجاوز عنهم في الذنوب الصغار ، وكيف يتتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار ! نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخرموا إلى الآخرة . والأشقياء يمهلون ليزدادوا إنما ، ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر ، فهذا أيضاً مما ينبغي أن يكثرون جنسه على أسماء المصريين ، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة .

^(١٧٩) يوسف : ٨٧

^(١٨١) يوسف : ٤٢

^(١٧٨) يوسف : ٨٣

^(١٨٠) يوسف : ٤٢

ذكر تعجيل عقوبة الذنوب في الدنيا

النوع الثالث : أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جنایاته . فرب عبد يتهاهل في أمر الآخرة ، ويختلف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفطرت جهله . فينبغي أن يخوّف به . فإن الذنوب كلها يتجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر . كما حكى في قصي داود وسليمان عليهما السلام . حتى أن قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنبه . وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه . قال عليهما السلام^(١٨٢) « إِنَّ الْعَبْدَ لِيُحْرِمُ الرِّزْقَ بِالذَّلِيلِ يُصِيبُهُ » وقال ابن مسعود . إنما لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه وهو معنى قوله عليه السلام^(١٨٣) « مَنْ قَارَفَ ذَلِيلًا فَارَقَهُ عَقْلٌ لَا يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَدًا » وقال بعض السلف : ليست اللعنة سواداً في الوجه ، ونقصاً في المال ، إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه ، وهو كما قال . لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد . فإذا لم يوفق للخير ، ويغفر له الشر فقد أبعد . والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان . وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف ، فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب ، ومن مجالسة الصالحين . بل يمتنع الله تعالى ليمتنع الصالحون . وحكي عن بعض العارفين أنه كان يمشي في الوحل جامعاً ثيابه ، محترزاً زلة رجله ، حتى زلت رجله وسقط . فقام وهو يمشي في وسط الوحل ويبيكي ويقول : هذا مثل العبد لا يزال يتوق الذنوب ويجابها ، حتى يقع في ذنب وذنبين ، فعندما يخوض في الذنوب خوضاً . وهو إشارة إلى أن الذنب تتجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر . ولذلك قال الفضيل : ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان ،

(١٨٢) حديث إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه : ابن ماجه والحاكم وصحح اسناده واللفظ له إلا أنه قال الرجل بدل العبد من حديث ثوبان .

(١٨٣) حديث من قارف ذليلًا فارقة عقل لا يعود إليه أبداً : تقدم .

فذنوبك ورثتك ذلك . وقال بعضهم : إن لا يُعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري . وقال آخر : أعرف العقوبة حتى في فارسي . وقال بعض صوفية الشام : نظرت إلى غلام نصراوي حسن الوجه . فوتفت أنظر إليه ، فمررت بي ابن الجلاء الدمشقي ، فأخذ بيدي فاستحييت منه . فقلت يا أبا عبد الله ، سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة ، وهذه الصنعة الحكمة ، كيف خلقت النار . فعمز يدي وقال : لتجدن عقوبها بعد حين . قال فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة . وقال أبو سليمان الداراني : الاحتلام عقوبة . وقال : لا يفوت أحداً صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه . وفي الخبر^(١٨٤) « مَا أَنْكَرْتُمْ مِنْ زَمَانِكُمْ فِيمَا غَيَّرْتُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ » وفي الخبر^(١٨٥) « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّ أَذْنِي مَا أَصْنَعَ بِالْعَبْدِ إِذَا آثَرَ شَهْوَتَهُ عَلَى طَاعَتِي أَنَّ أَحْرِمَهُ لَذِيَّدَ مُنَاجَاتِي » .

وحكى عن أبي عمرو بن علوان في قصة يطول ذكرها . قال فيها : كنت قائماً ذات يوم أصلى ، فخامر قلبي هوئ طاولته بفكري ، حتى تولد منه شهوة الرجال . فوافقت إلى الأرض ، واسود جسدي كله ، فاستترت في البيت ، فلم أخرج ثلاثة أيام . وكنت أعالجه غسله في الحمام بالصابون ، فلا يزداد إلا سواداً ، حتى انكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيد ، وكان قد وجه إلى فأ شخصني من الرقة . فلما أتيته قال لي : أما استحييت من الله تعالى؟ كنت قائماً بين يديه ، فساورت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقه وأخرجتك من بين يدي الله تعالى؟ فلولا أنني دعوت الله لك ، وتبت إليه عنك ، للقيت الله بذلك اللون . قال فتعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة . واعلم أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجه قلبه . فإن كان سعيداً أظهر السواد على ظاهره ليزجر . وإن كان شقياً أخفى عنه حتى ينهملك ويستوجب

(١٨٤) حديث ما انكرتم من زمانكم فيها انكرتم من أعمالكم : البهقى في الزهد من حديث أبي الدرداء وقال غريب تفرد به هكذا العقيل وهو عبد الله بن هاشم قلت هو منهم بالكتاب قال ابن أبي حاتم روى عن أبيه أحاديث بواطيل .

(١٨٥) حديث يقول الله إن أذن ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرم له مناجاتي غريب لم أجده .

النار . والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا ، من الفقر ، والمرض وغيره . بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفتة . فإن ابتلى بشيء كان عقوبة له ، ويحرم جميل الرزق ، حتى يتضاعف شقاوته . وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له ، ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه وأما المطیع ، فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جراء على طاعته ، ويوفق لشكرها . وكل بليه كفارة لذنبه ، وزيادة في درجاته .

ذكر حدود الذنوب والنفوس في الوجوه

النوع الرابع : ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب ، كالخمر ، والزنا ، والسرقة ، والقتل ، والغيبة ، والكبير ، والحسد . وكل ذلك مما لا يمكن حصره . وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه . بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق ، فيستدل أولاً بالنبض ، والسُّحنة^(١٨٦) وجوده الحركات ، على العلل الباطنة . ويشتغل بعلاجها ، فليستدل بغير إثنين الأحوال على خفايا الصفات ، وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله عليه السلام^(١٨٧) ، حيث قال له واحد : أوصني يا رسول الله ولا تكثر علىي . قال « لا تغضب »^(١٨٨) وقال له آخر : أوصني يا رسول الله . فقال عليه السلام : « عَلَيْكَ بِالْيَأسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ فَإِنْ ذَلِكَ هُوَ الْغَنِيُّ وَإِيَّاكَ وَالْطَّمْعُ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ وَصَلَّ صَلَاةً مُوَدِّعًا وَإِيَّاكَ وَمَا يُقْتَدِرُ مِنْهُ » . وقال رجل لـ محمد بن واسع : أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة . قال وكيف لي بذلك ؟ قال الزرم الزهد في الدنيا . فكأنه عليه توسم في السائل الأول مخايل الغضب فنهاه عنه . وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل . وتخييل محمد بن واسع في السائل مخايل الحرث على

(١٨٦) السُّحنة : المبغة واللون وهي بفتحتين أو بفتح فسكون .

(١٨٧) . جديـث قال رـجل أـوصـنـي وـلا تـكـثـرـ عـلـيـ قـالـ لا تـغـضـبـ : تـقدـمـ .

(١٨٨) حـديث قـالـ لـ آخر أـوصـنـي قـالـ عـلـيـكـ بـالـيـأسـ — الحـديثـ : ابنـ مـاجـهـ وـقـدـ تـقدـمـ .

الدنيا . وقال رجل لمعاذ أوصني . فقال : كن رحيمًا أكُن لك بالجنة زعيماً فكأنه تفرس فيه آثار الفطاظة والغلظة وقال رجل لإبراهيم بن أدهم . أوصني . فقال : إياك والناس ، وعليك بالناس ، ولا بد من الناس ، فإن الناس هم الناس ، وليس كل الناس بالناس . ذهب الناس ، وبقي الناس ، وما أرَاهم بالناس ، بل غمسوا في ماء اليأس . فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة . وأخبر عما كان هو الغالب على حالة في وقته ، وكان الغالب أذاه بالناس . والكلام على قدر حال السائل ، أولى من أن يكون بحسب حال القائل . وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها أن اكتبى لي كتاباً توصيني فيه ولا تكثري . فكتبت إليه من عائشة إلى معاوية ، سلام عليك ، أما بعد ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول^(١٨٩) : « مَنْ تَمَسَّ رَضَا اللَّهِ بِسَخْطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مَؤْنَةً النَّاسِ وَمَنْ تَمَسَّ سَخْطِ اللَّهِ بِرِضَا النَّاسِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ » والسلام عليك ، فانظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التي تكون الولاة بصددها ، وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم . وكتبت إليه مرة أخرى أما بعد ، فاتق الله ، فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس ، وإذا اتقيت الناس لم يغنو عنك من الله شيئاً والسلام .

فإذاً على كل ناصح أن تكون عناته مصروفة إلى تفسير الصفات الخفية ، وتوسم الأحوال اللاحقة ، ليكون اشتغاله بالهم . فإن حكاية جميع مواضع الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان .

فإن قلت . فإن كان الوعاظ يتكلم في جمـع ، أو سألهـ من لا يدرى باطن حالـهـ أـنـ يـعظـهـ ، فـكـيفـ يـفعـلـ . فـأـعـلـمـ أـنـ طـرـيقـهـ فـذـلـكـ أـنـ يـعظـهـ بـمـاـ يـشـترـكـ كـافـةـ الـخـلـقـ فـالـحـاجـةـ إـلـيـهـ إـمـاـ عـلـىـ الـعـمـومـ ، وـإـمـاـ عـلـىـ الـأـكـثـرـ . فـإـنـ فـيـ عـلـوـمـ

(١٨٩) حديث عائشة من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس — الحديث : الترمذى والحاام وفى مستند الترمذى من لم يسم .

الشرع أغذية وأدوية ، فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل . ومثاله ما روى أن رجلاً قال لأبي سعيد الخدري . أوصني . قال : عليك بتقوى الله عز وجل ، فإنها رأس كل خير . وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام . وعليك بالقرآن فإنه نور لك في أهل الأرض ، وذكر لك في أهل السماء . وعليك بالصمت إلا من خير ، فإنك بذلك تغلب الشيطان . وقال رجل للحسن أوصني . فقال . أعز أمر الله يعزك الله . وقال لقمان لابنه . يا بني ، زاحم العلماء بركتيتك ، ولا تجادهم فيمقتوك ، وخذ من الدنيا بلاغك ، وأنفق فضول كسبك لآخرتك ، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً^(١٩٠) ، وعلى عنق الرجال كلام^(١٩١) ، وصم صوماً يكسر شهوتك ، ولا تصم صوماً يضر بصلاتك ، فإن الصلاة أفضل من الصوم ، ولا تجالس السفه ، ولا تختلط ذا الوجهين وقال أيضاً لابنه . يا بني ، لا تضحك من غير عجب ، ولا تمش في غير أرب^(١٩٢) ، ولا تسأل عما لا يعنيك ، ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك ، فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت يا بني ، إن من يرحم يُرحم ، ومن يصْمِّت يسلم ، ومن يقل الخير يغم ، ومن يفل الشر يأنم ومن لا يملك لسانه يندم .

وقال رجل لأبي حازم أوصني . فقال كل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالرمه . وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه .

وقال موسى للحضر عليهم السلام أوصني ، فقال : كن بساماً ولا تكن غضاً^ابا . وكن نقاعاً ولا تكن ضراراً ، وانزع عن اللجاجة^(١٩٣) ، ولا تمش في غير حاجة ، ولا تضحك من غير عجب ، ولا تغير الخطائين بخطاياهم ، وابك على خطيئتك يا بن عمران .

(١٩١) الكل : الضعيف الذي يحمله غيره

(١٩٠) أي عالة على غيرك .

(١٩٢) أرب : مقصد وهدف ومصلحة وحاجة .

(١٩٣) يقال : نزع عن كذا انتهى عنه .

واللجاجة : القادي في الحصومة

وقال رجل لحمد بن كرام أوصنى . فقال : اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك .

وقال رجل لحامد اللفاف أوصنى . فقال : اجعل لدينك غلافاً كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات . وقال رجل لحامد اللفاف أوصنى . فقال : اجعل لدينك غلافاً كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات . قال وما غلاف الدين ؟ قال ترك طلب الدنيا إلا ما لا بد منه ، وترك كثرة الكلام إلا فيما لا بد منه ، وترك مخالطة الناس إلا فيما لا بد منه .

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى . أما بعد ، فخف ما خوفك الله ، واحذر ما حذرك الله ، وخذ مما في يديك لما بين يديك ، فمدد الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام .

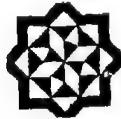
وكتب عم بن عبد العزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه ، فكتب إليه أما بعد ، فإن المول الأعظم والأمور المفظعات أمامك ، ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب . واعلم أن من حاسب نفسه ربع ، ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر في العواقب نجا ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن حلم غنم ، ومن خاف أمن ، ومن أمن اعتبر ، ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم . فإذا زلت فارجع ، وإذا ندمت فاقْلِعْ وإذا جهلت ، فاسأل ، وإذا غضبت فامسك .

وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد ، فإن الدنيا دار عقوبة ، ولها يجمع من لا عقل له ، وبها يغتر من لا علم عنده .. فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوى جرحه ، يصير على شدة الدواء لما يخالف من عاقبة الداء .

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عدى بن أرطاة : أما بعد ، فإن الدنيا عدوة أولياء الله ، وعدوة أعداء الله . فأما أولياؤه فغمتهم . وأما أعداؤه فغرتهم .

ـ وكتب أيضاً إلى بعض عماله : أما بعد ، فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد ، فإذا همت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك . وأعلم أن الله عز وجل آخذ للمظلومين من المظالمين والسلام .

فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ، ووعظ من لا يدرى خصوص واقعته . فهذه للواعظ مثل الأغذية التى يشترك الكافة في الانتفاع بها . ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ أنفسهم بباب الاتعاظ ، وغلبت المعاصي ، واستشرى الفساد ، وبلي الخلق بوعاظ يزخرفون أسماعاً ، وينشدون أبياتاً ، ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ، ويتشبهون بحال غيرهم . فسقط عن قلوب العامة وقارُّهم ، ولم يكن كلامهم صادراً من القلب ليصل إلى القلب . يا القائل متصلف ، والمستمع متكلف ، وكل واحد منها مُذبِّر ومتخلف . فإذا كان طلب الطيب أول علاج المرضى ، وطلب العلماء أول علاج العاصين . فهذا أحد أركان العلاج وأصوله .





الفصل الثالث

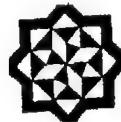
الركن الثاني في العلاج الصبر

الأصل الثاني : الصبر ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره . وإنما يتناول ذلك إما لغفلته عن مصرته ، وإما لشدة غلبة شهرته . فله سببان . فما ذكرناه هو علاج الغفلة ، فيبقى علاج الشهوة . وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس .

وحاسمه أن المريض إذا اشتدت ضراوته لأكله مضر ، فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ، ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ، ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ، ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذي يناله في تركه . فلا بد على كل حال من مرارة الصبر . فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي . كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة ، فصار لا يقدر على حفظ عينه ، ولا حفظ قلبه ، أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه ، بأن يستقرى المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ . فإذا اشتتد خوفه تباعد من الأسباب المهيجة لشهوته . ومهيج الشهوة من خارج ، هو حضور المشتى والنظر إليه ، وعلاجه الهرب والعزلة ومن داخل تناول المذاق الأطعمة ، وعلاج الجوع والصوم الدائم . وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ، ولا يصبر إلا عن خوف ، ولا تخاف إلا عن علم ، ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتخار ، أو عن سمع وتقليد . فأول الأمر حضور مجالس الذكر ، ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل ، مصروف إلى السماع ، ثم التفكير فيه ل تمام الفهم وينبعث من تمامه لا حالة خوفه وإذا قوى المخوف تيسر بمعونته الصبر ، وانبعثت النواعى لطلب العلاج ، وتوفيق الله

وتيسيره من وراء ذلك . فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء ، واستشعر الخوف فاتقى ، وانتظر الثواب ، وصدق بالحسنى ، فسيسره الله تعالى لليسرى . وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسيسره الله للعسri ، فلا يعني عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهلاهلك وتردى . وما على الأنبياء إلا شرح طرق المدى ، وإنما الله الآخرة والأولى .

فإن قلت : فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان ، لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف ، والخوف لا يكون إلا بالعلم ، والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظيم ضرر الذنوب والتصديق بعظيم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان ، فكان من أصر على الذنب لم يُصر عليه إلا لأنه غير مؤمن ، فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان ، بل يكون لضعف الإيمان . إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى ، وسبب العقاب في الآخرة . ولكن سبب وقوع في الذنب أمور .





الفصل الرابع

أسباب الوقوع في الذنوب

أحدها : أن العقاب الموعود غيبٌ ليس بحاضر . والنفس جبت متأثرة بالحاضر ، فتأثيرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثيرها بالحاضر .

الثاني : أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة ، وهي في الحال آخذه بالمحتق . وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف ، والعادة طبيعة خامسة ، والتزروع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس . ولذلك قال تعالى : ﴿كَلَّا بْلَى تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَدْرُونَ الْآخِرَةَ﴾^(١٩٤) وقال عز وجل : ﴿بْلَى تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(١٩٥) وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله ﷺ^(١٩٦) « حُفِّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفِّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » وقوله ﷺ^(١٩٧) : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ النَّارَ فَقَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا . فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيُدْخِلُهَا فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ . ثُمَّ قَالَ : اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ . فَقَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ . فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا وَخَلَقَ الْجَنَّةَ . فَقَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ . فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا فَحَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ ثُمَّ قَالَ : اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا . فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَسْمَعَ بِهَا أَحَدٌ ». فإذاً كون الشهوة مرهقة في

(١٩٤) القيامة : ٢٠

(١٩٥) الأعلى : ١٦

(١٩٦) حديث حفت الجنة بالمكاره — الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(١٩٧) حديث إن الله خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر إليها — الحديث : أبو داود والترمذى والحاكم

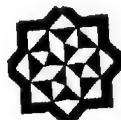
صححه من حديث أبي هريرة وقد فيه ذكر الجنة .

الحال ، وكون العقاب متأخر إلى المال ، سببان ظاهران في الاسترسال . مع حصول أصل الإيمان . فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه ، مكذباً بأصل الطب ، ولا مكذباً بأن ذلك مضر في حقه . ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز ، فيرون عليه الألم المتظر .

الثالث . أنه ما من مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة ، وتکفير السيئات بالحسنات . وقد وعد بأن ذلك يجبره . إلا أن طول الأمل غالب على الطياع ، فلا يزال يسُوف التوبة والتکفير . فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ، ربما يقدم عليه مع الإيمان .

الرابع : أنه ما من مؤمن موقن ، إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها . فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالاً على فضل الله تعالى .

فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب ، مع بقاء أصل الإيمان .
نعم قد يقدم الذنب بسبب خامس يقع في أصل إيمانه ، وهو كونه شاكاً في صدق الرسل ، وهذا من الكفر . كالذى يحذر الطبيب عن تناول ما يضره في المرض . فإن كان المخدر من لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب ، فيكدره أو يشك فيه ، فلا يبالي به . فهذا هو الكفر .





الفصل الخامس

علاج الأسباب الموجبة للإصرار

الفكر الحقيقي دواء الوقوع في المعاصي :

فإن قلت : فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول هو الفكر وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول ، وهو تأخر العقاب ، أن كل ما هو آت آت : وأن غداً للناظرین قريب ، وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله ، فما يدريه لعل الساعة قريب . والمتاخر إذا وقع صار ناجزاً . ويدرك نفسه أنه أبداً في دنياه يتعب في الحال لخوف أمر في الاستقبال . إذ يركب البحار ، ويقاسي الأسفار ، لأجل الريح الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في ثان الحال . بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت ، وكان الماء البارد ألد الأشياء عنده تركه ، مع أن الموت ألمه لحظة إذا لم يخفف ما بعده ، ومقارنته للدنيا لا بد منها . فكم نسأله وجوده في الدنيا إلى عدمه أولاً وأبداً ، فلينظر كيف يمادر إلى ترك ملاده بقول ذمي لم تقم معجزة على طبعه ، فيقول . كيف يليق بعقله أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي ، دون قول نصه إن يدعى "الطب لنفسه بلا معجزة على طبعه ، ولا يشهد له إلا عوام الخلق ؟ وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض ، وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا !

وبهذا التفكير بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه . ويكلف نفسه تركها ، ويقول إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل ، فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد ! وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر ، فكيف أطيق ألم النار ! وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كلوراتها وتنفسها وامتزج صفوها

بکدرها . فكيف أصبر عن نعيم الآخرة ! وأما تسويف التوبة فيعالجه بالتفكير في أن أكثر صياغ أهل النار من التسويف ، لأن المسوف يعني الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فعله لا يبقى وإن بقى فلا يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم . فليت شعرى هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة ؟ والشهوة ليست تفارقه غداً بل تتضاعف ، إذ تتأكد بالاعتياد . فليست الشهوة التي أكدتها الإنسان بالمادة كالتى لم يؤكدها . وعن هذا هلك المسؤولون ، لأنهم يظنون الفرق بين المتأثرين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبداً شاق ، وما مثال المسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تقلع إلا بمشقة شديدة ، فقال : أؤخرها سنة ثم أعود إليها ، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه . فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته ، إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف . فأخذ يتضرر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوى الضيف . وأما المعنى الرابع ، وهو انتظار عفو الله تعالى ، فعلاجه ما سبق . وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء . منتظراً من فضل الله تعالى أن يرثه العثور على كنز في أرض خربة . فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان . وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده ، وترك ذخائر أمواله في صحن داره ، وقدر على دفنه وإخفائها فلم يفعل ، وقال : أنتظرن من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب ، حتى لا يتفرغ إلى داري ، أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدار ، فإن الموت ممكناً ، والغفلة ممكنة ، وقد حكى في الأسمار أن مثل ذلك وقع : فأنا أنتظرك من فضل الله مثله . فمنتظر هذا منتظر أمر ممكناً ، ولكنه في غاية الحماقة والجهل ، إذ قد لا يمكن ولا يكون . وأما الخامس وهو شك بهذا كفر . وعلاجه الآسياط التي تعرفه صدق الرسل . وذلك يطول . ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله فيقال له :

ما قاله الأنبياء المؤيديون بالمعجزات هل صدقه يمكن ؟ أو تقول أعلم أنه مجال ، كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة ؟ فإن

قال أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه ، وكأنه لا وجود لمثل هذا في العلاء . وإن قال أنا شاك فيه فيقال : لو أخبرك شخص واحد مجاهول ، عند تركك طعامك في البيت لحظة ، أنه ولغت فيه حية ، وألقت سمها فيه ، وجوزت صدقه ، فهل تأكله أو تتركه ؟ وإن كان أذ الأطعمة ؟ فيقول أتركه لا محالة ، لأنني أقول إن كذب فلا يفوتنى إلا هذا الطعام ، والصبر عنه وإن كان شديداً فهو قريب ، وإن صدق ففوتني الحياة ، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد . فيقال له : يا سبحان الله ، كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم ، مع ما ظهر لهم من المعجزات ، وصدق كافة الأولياء ، والعلماء ، والحكماء ، بل جميع أصناف العلاء ، ولست أعني بهم جهال العوام بل ذوى الألباب ، عن صدق رجل واحد مجاهول ، لعل له غرضاً فيما يقول ! فليس في العلاء إلا من صدق بالاليوم الآخر ؛ وأثبت ثواباً وعقاباً ، وإن اختلفوا في كيفيةه ، فإن صدقوا فقد أشرفوا على عذاب يبقى أبداً أبداً . وإن كذبوا فلا يفوتوك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة فلا يبقى له توقف إن كان عاقلاً مع هذا الفكر إذ لا نسبة ملدة العمر إلى أبداً أبداً . بل لو قدرنا الدنيا مملوقة بالذرة ، وقدرنا طائراً يلتقط في كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها . لفنت الذرة ، ولم ينقص أبداً أبداً شيئاً . فكيف يفتر رأى الغافل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلاً ، لأجل سعادة تبقى أبداً أبداً ! ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخي المعري :

قال المنجم والطبيب كلاماً لا تبعث الأموات قلت إليك
 إن صح قوله فلست بخاسر أو صح قوله فالخسار عليكم

ولذلك قال على رضى الله عنه البعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور ، وكان شاكاً : إن صح ما قلت فقد تخلصنا جميعاً ، وإن فقد تخلصت وهلكت . أى العاقل يسلك طريق الأمان في جميع الأحوال . فإن قلت . هذه الأمور جلية ، ولكنها ليست تثال إلا بالتفكير ، فما بال القلوب هجرت الفكر فيها وأميشقنته ، وما علاج القلوب لردها إلى الفكر ، لا سيما من آمن بأصل

الشرع وتفاصيله . فاعلم أن المانع من الفكر أمران : أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهواها ، وشدائدها ، وحسرات العاصين في الحرمأن عن النعم المقيم . وهذا فكر لدّاع مؤلم للقلب ، فينفر القلب عنه ، ويتلذذ بالتفكير في أمور الدنيا على سبيل التفريج والاستراحة .

والثاني : أن الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وبقضاء الشهوات وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ، ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقته . فصار عقله مسخراً لشهوته ، فهو مشغول بتدبير حيلته ، وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة ؟ والفكر يمنعه من ذلك . وأما علاج هذين المانعين ، فهو أن يقول لقلبه : ما أشد غباؤتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده ، تأملاً بذكره ، مع استحقار ألم موقعته . فكيف تصير على مقاساته إذا وقع ، وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ، ومتأنم به ! .

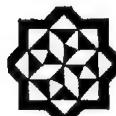
وأما الثاني : وهو كون الفكر مفوتاً للذات الدنيا ، فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم . فإنها لا آخر لها ، ولا كدورة فيها . ولذات الدنيا سريعة الدثور ، وهي مشوبة بالمكدرات . فما فيها لذة صافية عن كدر . وكيف وفي التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى ، واستراحة بمعرفته ، وطاعتة ، وطول الأنس به ! ولو لم يكن للمطبيع جزاء على عمله إلا ما يتجده من حلأة الطاعة ، وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافياً . فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة ! نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ، ولكنها بعدها يصير عليها مدة مديدة ، وقد صار الخير ديدنا ، كما كان الشر ديدنا ، فالنفس قاتلة ما عودتها تتعود ، والخير عادة ، والشر لجاجة .

فإذاً هذه الأفكار هي المهيجة للخوف المهييج لقوة الصبر عن اللذات . ومهييج هذه الأفكار وعظ الوعاظ ، ونبهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل في الحصر ، فيصير الفكر موافقاً للطبع ، فيميل القلب إليه : ويعبر

عن النسب الذى أوقع الموافقة بين الطبيع والفكر الذى هو سبب الخير بالتوافق . إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذى هو طاعة نافعة في الآخرة . وقد روى في حديث طويل ، أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلى بن أبي طالب كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين ، أخبرنا عن الكفر على ماذا بُني فقال على رضي الله عنه : بني على أربع دعائم . على الجفاء ، والعمى والغفلة ، والشك . فمن جفا احتقر الحق ، وجهر بالباطل ومقت العلماء . ومن عمى نسي الذكر . ومن غفل حاد عن الرشد . ومن شك غرته الأمانى . فأخذته الحسرة والندامة ، وبداله من الله ما لم يكن يحتسب .

فما ذكرناه بيان بعض آفات الغفلة عن التفكير وهذا القدر في التوبة كاف .

والحمد لله الذى بنعمته تم الصالحات ..



فهرس التوبيه

صفحة	الموضوع
٥	كلمة المحقق
٩	دراسة التحقيق :
	[هذا الكتاب — المؤلف — عصره — مؤلفاته — حجة الإسلام الخزالي مؤلفاً ومجدداً — منهج التحقيق].
٢١	مقدمة المؤلف
٢٣	تهييد
٢٥	الركن الأول : في نفس التوبه [ويتضمن خمسة فصول]
	الركن الثاني : فيما عنده التوبه (وهي الذنوب صغائرها وكبائرها) ... ٥٥ [ويتضمن أربعة فصول]
	الركن الثالث : في تمام التوبه ، وشروطها ، ودوامها إلى آخر العمر .. ٩٩ [ويتضمن خمسة فصول]
١٣٧	الركن الرابع : في دواء التوبه ، وطريق العلاج حل عقدة الإصرار . [ويتضمن خمسة فصول]
	والحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات

رقم الإيداع
٨٦/٤٥٤٥

مطابع نجحى الصناعية
٥٤ شارع بور سعيد — السواح — الأُمّرِيَّة
تليفون ٩٢٦٢٨٩ — ٩٢٦٩٧٣



0402221

Bibliotheca Alexandrina

To: www.al-mostafa.com